بسم الله الرحمن الرحيم

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ

العَرْفُ العَاطِر

في معرفة الخواطر وغيرها من الجواهر

للسيد العلامة

أبو المراحم عبد الرحمن بن مصطفى بن شيخ العيدروس

(١١٣٥ - ١١٩٢هـ)

المركز الملكي للبحوث والدراسات الإسلامية

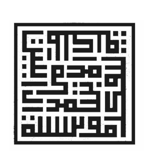
السلسلة العربية - الكتاب العاشر

العَرفُ العَاطِر

في معرفة الخواطر وغيرها من الجواهر

للسيد العلامة

أبو المراحم عبد الرحمن بن مصطفى بن شيخ العيدروس



مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المحتويات

مقدمة

يتناول كتاب «العَرف العاطِر في معرفة الخواطر وغيرها من الجواهر» مفهوم الخواطر التي تَعْرِض للنَّفْس الإنسانيَّة، وبيان سبب حدوثها وأنواعِها وكيفيّة دواءها. وهذا الكتاب هو شرح لمنظومة المؤلف في الخواطر.

ومُؤَلِّف الكتاب هو الإمام السَّيِّد أبو المراحم، عبد الرَّحمن بن مصطفى بن شيخ العيدروس[1]، ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب كرّمَ الله وجهه. ولد بتريم (في حضرموت) سنة ١١٣٥هـ/ ١٧٢٣م، وتعلّم في حداثة سِنِّه عُلُوم القرآن وارتاد مجالس العِلم والعُلَماء، ثم واصل لقاء المَشْيَخة فتلقَّى علومه الدينيّة والشرعيَّة والنقليّة والعقليّة على جماعة من العُلَماء الأعلام؛ منهم: جدِّه العلّامة شيخ بن مصطفى العيدروس، ووالده السيِّد العلّامة مصطفى والسيِّد الشيخ عبد الرَّحمن بن عبد الله بلفقيه، كما أَخَذَ العِلْم عن جماعة من مَشَايِخ عَصْرِه مِن الهِنْد ومَكَّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة والطَّائِف ومصر.

وقام المؤلِّف ـ رحمه الله ـ بالعديد من الرّحلات إلى أقطار كثيرة، وقد بدأ هذه الزيارات منذ وقت مبكِّر من حياته؛ إذ زار الهِنْد وعمره ١٨ سنة برفقة والده واتّصل هناك بعُلَماء الهِنْد وزار بلاد جاوه، ثم قام برحلة إلى الحِجَاز وأدَّى مناسك الحَجّ وتنقَّل في الإقامة بين المدينة ومكَّة والطَّائف،

---

[1] انظر ترجمته في: سلك الدرر للمرادي ٢: ٣٢٨، وعجائب الآثار للجبرتي ٢: ٢٨ – ٣٥، وفهرس الفهارس والأثبات للكتاني ٢: ٧٣٩ – ٧٤٢، والأعلام للزركلي ٣: ٣٣٨، ومعجم المؤلفين لكحالة ٥: ١٩٥.

ومن الحِجَاز توجَّه إلى مصر بطريق البحر من جدَّة، وأمضى وقت إقامته فيها بزيارة أضرحة وقبور الأولياء والعُلَماء بمصر، والتقى بكبار عُلَماء مصر وجرت بينه وبينهم المُذَاكرة والمُبَاحَثَة، ثم ارتحل إلى الشَّام فمرّ بغزَّة ونابلس ووصل إلى دمشق وأقام فيها مدَّة ثُمَّ عاد إلى مصر مرورًا ببيت المقدس. كما ارتحل الشِّيخ أبو المراحم إلى اسطنبول فأمضى فيها نحو شهر ونصف وعاد منها إلى مصر.

وكوَّن الشَّيْخ من خلال رحلاته الكثيرة العديد من العلاقات العلميّة التي ربطته بتلاميذه في كُلّ الأقطار التي زارها، ولازمه العديد منهم، وأجازهم بمروياته وقرأ عليهم، منهم السيِّد الشِّيخ محمد بن مرتضى الحسني والشَّيخ سليمان الجمل والشَّيخ محمد التاودي والعلّامة عبد الرَّحمن الجبرتي مؤلِّف كتاب «تاريخ الجبرتي» والسيِّد عبد الرَّحمن بن سليمان الأهدل وغيرهم.

وترك الشَّيخ العيدروس مؤلَّفات كثيرة، بين منثور ومنظوم، وتنوّعت مواضيعها بين الحديث والتصوّف والأذْكَار والمَنظومات في مواضيع مختلفة، والتَّراجم والرّحلات وغيرها من المَواضيع التي تناولها الشَّيخ بالبحث والتأليف، وقد بلغَت مؤلَّفاته نحو ٦٧ مؤلَّفًا منها: «لطائف الجود في مسألة وحدة الوجود»، و«سلسلة الذهب المتصلة بخبر العجم والعرب»، و«القول الأشبه في حديث: من عرف نفسه عرف ربه».

وكانت وفاته - رحمه الله - في مصر سنة ١١٩٢هـ/ ١٧٧٨م.

بســم الله الرحمن الرحيــم

بسم الله والحمد لله والصَّلاة والسَّلام على رسول الله وعلى آله وصَحبِه وأولياء الله وبعد:

فهذه تعليقة لطيفة على أبيات لنا مُنِيفَة، واسمها: "العَرْفُ[1] العاطِرُ في معرِفَةِ الخَوَاطِرِ وغَيْرِها من الجَوَاهِرِ"، وسبحان الله الظَّاهر في الـمَظاهِرِ، والأبيات هي هذه:

إنَّ الخَواطِرَ يا ابـن ودّي أربعـهْ	وهـي الَّتـي أحوالهـا متنوِّعـهْ
منها الذي يُعْـزَى إلى الشَّـيطان	وكذا التي هـو خـاطرٌ نَفْسـاني
وخاطر يُعْـزَى إلى فِعْـل المَلَـك	وأجلّها يُولِي بِـه مَـنْ قَـد مَلَـك
ولقــد تَكامَل عدَّها يا سَـالِك	فاعلمه واعمل يُجْلَ ليل حالك

وأقول: أولاً هذا التنبيه الذي وقع فيه رفع إشكال عمَّا عسى أن سيأتي في هذه التَّعليقة فيما يتعلَّق بالقرآن الكريم ونحوه:

القرآن له ظهر وبطن:

أعلَم أنّه قد ثَبَتَ بالأحاديث الصَّحيحة أنّ لكلِّ آية من القرآن ظَهْراً[2]: أي وهو تفسيره المتعـارَف، وحَـدُّهُ أن لا يتجـاوز المنقـول وعليـه

---

(1) العَرْف: المقصود بالعرف هنا الرائحة الطيبة، وهو أحد المعاني اللغوية للكلمة كما في لسان العرب، مادة: عرف.

(2) هو جزء من حديث رواه ابن حبان في صحيحه (١: ١٤٦) ونص الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (أُنْزِلَ القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن).

يُحْمَل قوله ﷺ «مَنْ قَالَ فِي القرآن بِرَأيِه فليَتَبَوَّأ مقعَدَهُ من النَّار»[1].

وبَطْنًا: أي وهو التأويل وهو ما تشير إليه الآية، وَحَدُّهُ أن لا يُجاوِز الكتاب والسنَّة مع عدم الجَزْم بأنّ المراد به هذا لا غير، فلا يكونُ من قَبيل تأويل الباطنيّة، بل هو من باب وجوه الاحتمالات لا بالعقل من غير قطعٍ بشيءٍ منها.

ومن ذلك قول عبد الله بن عبّاس - رضي الله عنهما وعن أبَوَيْه ونَفَعَ بهم - في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]. الماء: العِلْمُ، والأودية: القلوب، انتهى.

أي أظهر من غيب سماء الحضرة الإلهيّة ماءَ العِلْمِ فجرى كل وادٍ من أودية القلوب القابلة له إلى النّفوس بِقَدْرِ امتلائها به وهذا النَّوع من التأويل غير ممنوع إذا كان فيه عبور من الظّاهر إلى الباطن مع تقرير الظّاهر، وإنما الممنوع ما عليه الباطنيّة من إنكار الظّاهر بالكُلِّيَّةِ وذلك كُفْرٌ.

وبالجملة: فالتّأويل يختلف باختلاف حال المُؤَوِّل من صفاء الفَهْمِ ورتبة المعرفة ونصيب القُرب من الله تعالى، ومن ثَمَّ قال أبو الدَّرداء - رضي الله عنه ـ: لا يَفْقَه الرَّجل كُلّ الفقه حتى يرى للقرآن وجوهًا كثيرة، وأعجب منه قول ابن مسعود - رضي الله عنه ـ: ما من آيةٍ إلّا ولها قوم سيعلمون بها.

---

[1] رواه الترمذي برقم (٢٩٥٠و٢٩٥١) والثاني منهما عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: (اتّقوا الحديث عنّي إلّا ما علمتم، فَمَن كَذَبَ عليَّ متعمِّدًا فليَتَبَوَّأ مَقْعَدَهُ من النَّار، ومَنْ قال في القرآن برأيه فليتَبوَّأ مَقْعَدَه مِن النَّار). وقال الترمذي عن الأول : حسن صحيح ، وعن الثاني حسن، في كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة فاتحة الكتاب .

وهذا الكلام منه رضي الله عنه مُحَرِّضٌ لكلّ طالبٍ صادقٍ صاحب هِمَّة أن يُصَفِّي موارد الكلام ويفهم دقيق معانيه وغامض أسراره من قلبه، وإلى هذا يشير قول الأستاذ المحضار[1] نَفَع الله به: لو شئت أن أُمْلِي من تفسير قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وِقْرَ[2] مائة بعيرٍ لفعلتُ ولم يَنْفَدْ تَفْسيرُهَا.

ولنرجع إلى تمام ما ذكرنا فنقول: (وَحَدًّا) وهو أن لا يتجاوز في الظّاهر بالعقل بدون النّقل، وفي الباطن أن لا يتجاوز قواعد العربيّة والمعقول، (ومُطَّلَعًا) أي وهو ما يَطَّلِعُ به إلى ما وراء التَّفسير والتَّأويل حتى يُشَاهِد المتكلِّم، كما نُقِلَ عن الإمام جعفر الصَّادق[3] رضي الله عنه ونَفَعَ به أنه قال: لقد تَجَلَّى الله لعباده في كلامه ولكن لا يُبْصِرون، وقد نُقِلَ عنه أيضاً: أنه خَرَّ مَغْشِيًّا عليه وهو في الصَّلاة، فَسُئِلَ عن ذلك فقال: ما زلتُ

---

[1] هو السيد العلامة عمر المحضار بن السيد الشريف عبد الرحمن السقاف باعلوي، مولده بتريم، وكان شيخ وقته في حضرموت، وله باع طويل في طريق أهل الله والسلوك وطريق القوم .. حفظ القرآن في صباه، وكان يحفظ منهاج الطالبين للنووي، وكتاب حقائق التصوف للشيخ أبي عبدالرحمن السلمي، ارتحل إلى الشحر واليمن والحرمين الشريفين، وصحب أكابر العلماء في وقته. توفي عام (٨٣٣هـ) ودفن في مقبرة زنبل بتريم. انظر: الحبشي: عقد اليواقيت ٢: ١٢١، الشلي: المشرع الروي ٢: ٢٤٤

[2] الوِقْرُ: الحِمل الثقيل. لسان العرب، مادة: وقر.

[3] هو عَلَم العلماء وأحد أعلام آل العترة النبوية الشريفة سيدنا الإمام أبو عبدالله جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن علي زين العابدين ابن الحسين سبط الرسول ابن علي بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، ولد بالمدينة سنة ٨٠هـ، وقيل: سنة ٨٣هـ، وهو من أجلاء التابعين، وله منزلة رفيعة في العلم، لقب بالصادق لأنه لم يُعرف عنه الكذب قط، وكانت وفاته في المدينة المنورة في منتصف شهر رجب سنة ١٤٨هـ، وقبر بالبقيع. انظر: وفيات الأعيان ١: ٣٢٧، صفوة الصفوة ٢: ١٦٨ - ١٧٤، الزركلي: الأعلام ٢: ١٢٦

أردِّدُ الآية حتى سمعتُها من المتَكلِّم بها.

فالصُّوفي لَمَّا لاحَت له ناصية التَّوحيد، وألقَى سَمْعَه عند سماع الوعد والوعيد، وصفا قلبه بالتخلُّصِ عمَّا سوى الله تعالى صار بين يدي الله حاضرًا شهيدًا، ويرى لسانه أو لسان غيره في التِّلاوة كشجرة موسى عليه السَّلام حيث أسمعه الله منها خطابه إياه: بأنني أنا الله. رَزَقَنا الله هذه الحالة بمحض فضله إنَّهُ جَواد كريم.

ولنَشْرَع الآن في المقصود بعون الموجود المقصود:

فنقول: اعلم أنّ المشهور من الخَواطر أربعة: رَبَّانيٌّ، ونَفْسَانيٌّ، ومَلَكِيٌّ، وشَيْطانيٌّ.

أهميّة معرفة الخواطر:

ومعرفة الخواطر من أهمّ شأن العبد، لأنّ الخاطر أَوَّلُ الفعل ومُفْتَتَحُهُ، لأنّ الأفعال تنشأ من الخواطر، والعبد إنّما خُلِقَ للعبادة والعبادة أفعال، وهي إنّما تنشأ من الخواطر كما ذكرنا على أنها تصير عبادة بمقدار صحّة الخاطر وهو من تمييز الخواطر، فهو أَوَّلُ الواجبات بعد معرفة الصانع والنُّبُوَّةِ، حتى ذَهَبَ بعض العلماء رحمهم الله إلى أن العلم المفترض طلبه لقول رسول الله ﷺ: «طَلَبُ العِلْمِ فريضة على كُلِّ مُسْلِم»[1] وهو علم الخواطر، قال: لأنها أوّل الفعل وبفسادها فساد الفعل.

لكن هذا الذي قاله لا يتَوَجَّهُ، لأنّ رسول الله ﷺ أَوْجَبَ ذلك على كلّ مُسْلِم، وليس كلّ المسلمين عندَهم من القرِيحَة والمَعْرفَةِ ما يعرفون به

---

[1] رواه ابن ماجه برقم (٢٢٤) وغيره، وهو حديث حسن.

ذلك، وعلى هذا يحمل الوجوب المذكور في حقّ الخواصّ أرباب القرائح الصَّافية السَّليمة، ويحمل تَوَقُّفُ الأفعال على معرفتها من حيث التّمييز الكامل في أنّها مقبولة أم لا، لا من حيث التَّكليف الشَّرعي.

إذا عُلِمَ ذلك فَلْيَعْلَمِ الطَّالب أنّ الخواطر بمثابة البَذْرِ، فمنها ما يُنْبِتُ السَّعادة ومنها ما يُنْبِتُ الشَّقاوة، والذي يُنْبِتُ السَّعادة: خاطر الحَقّ إلّا عند الغضب، وخاطر المَلَك، والذي يُنْبِتُ الشَّقاوة: خاطر النَّفْس إلّا عند الطَّمأنينة، وإلّا فهي التي أوقَعَتْ الشَّيطان في إبائه من السُّجود بكبرها وعجبها، وخاطر الشَّيطان إلّا عند قَصْد الكَيد بإظهار خواطر الخير حتى يَسْتَدْرِجَ إلى خاطر الشَّر، أو يظهر خاطر خيرٍ ليَشْغَلَ العبدَ به عمَّا هو أهمّ منه.

أسباب اشتباه الخواطر:

وسبب اشتباه الخَواطِر أربعة أشياء لا خامس لها، وعند ارتفاعها تَتِمُّ المعرفة بالنَّافع والضَّار على ما هما عليه، وطلب الأوَّل والهُروب من الثَّاني.

والأوَّل: هو ضَعْفُ اليقين بالأمور الأخرويّة أو بالمُخْبِرِينَ بها.

والثاني: هو قِلَّةُ العِلْم الذي تُعرف به صفات النَّفْس وأخلاقها التي هي طلب النَّافع والهُروب من الضَّار فإنّها إذا لم تعرف تَلَبّس النَّفْس النَّافع بالضَّار والضَّار بالنَّافع طلبًا لما تهواه وهربًا عَمَّا يخالف هواها.

والثالث: هو متابعة الهوى وإن عُلِمَ أنه يضلّ عن سبيل الله، وأن من يَضِلّ عن سبيل الله له عذاب شديد، إلّا أنّ النَّفْس قد تَغْلِبُ صاحِبها بحيث يَعْجَزُ عنها لعدم إلجامها بلجَام التَّقوى ولوجود تعويدها الإتيان

بمشتهياتها، إذ عند ذلك تَنْخَرِمُ قواعد التّقوى فتسري الظُّلمة إلى القَلْب، فلا يكون له نور يَقْدِرُ به على دفع ظلمة النَّفْس فتغلبه النَّفْس.

والرابع: هو محبّة الدّنيا لجاهها ومالها؛ لا من حيث إنه يُوصِلُ إلى الشَّهَوات بل لطلب الرِّفعةِ بالغِنَى والمَنْزِلَةِ عند النَّاس، والفَرْقُ بين الكُلّ يُعْرَفُ ممّا ذكرناه.

وقد يُفَرَّقُ بين العِلْمِ واليَقين بأن العِلْم: هو الاعتقاد الجازم الـمُطابق للواقع، واليقين: وجدان برودةِ ذلك واستقراره.

وبين متابعة الهَوى ومحبّة الدّنيا وأخلاق النَّفْس: أنّ الأخلاق مبادئ الأفعال والمتابعة نفس الأفعال.

وبين متابعة الهَوى ومحبّة الدّنيا: بأنّ محبّ الدُّنيا قد يَتْعَب ويَتْرُك المآكل والمناكح لأجلها ويتلذَّذ بالجاه دون المآكل والمناكح.

فَمَنْ عُصِمَ عن هذه الأربعة صار قويّ الدِّين كامل المَعْرِفة بصفات النَّفْس وأخلاقِها، وألْجَمَ نفسه بلِجام التَّقْوى وكَمُلَ زُهْده في الدُّنيا مالها وجاهها، وفرَّق بين لَـمَّةِ المَلَك ولَـمَّة الشَّيطان أوّلًا، ثم ينتهي إلى معرفة خاطر النَّفْس وخاطر الحقّ.

ومَنْ ابتُلِيَ بهذه الأمور جميعًا لا يعرف الخواطر ولا يطلبها، إذ ليس له اعتقاد الأمور الأخرويّة حتى يطلب معرفة النَّافع والضَّار الأخروي، والنَّافع والضَّار إنّما يعتبر عند أهل الحَقّ بالنسبة إلى الأمور الأخرويّة مع أنّه جاهل بحقيقة ما تطلبه النَّفْس، فيعتقد نَفْعَ كلّ ما تطلبه وضَرَر كل ما تهرب عنه، ومع ذلك يلزمه الهَوى ذلك وتُعِينُهُ محبّة الدُّنيا التي هي رأس الخطيئة.

معرفة النَّفْس:

وانكشاف بعض الخواطر دون البعض لوجود بعض هذه الأربعة دون بعض، وأقوم الناس بتقويم الخواطر أقومهم بمعرفة النَّفْس، ومعرفة النَّفْس عَسِرُ الـمَنَال جدًا، لا يكاد يتيسّر إلّا بالاستقصاء في الزُّهد والتَّقوى، ولهذا ربط ﷺ معرفة الله بمعرفة النَّفْس فقال: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَه عَرَفَ رَبَّه»[1].

وذلك كربط معرفة النَّهار بمعرفة اللَّيل، فإنه لولا ظهور الليل لم تُعْرَفْ فضيلة النَّهار، فكذا لولا معرفة النَّفْس لم يُعْرَف مقام العبوديَّة فلم يُعْرَفْ مقام الرُّبُوبيَّة على الكمال، وقد كان رسول الله ﷺ مع غاية طهارة نفسه دائم الافتقار إلى مولاه في الاستعاذة من شَرِّها، حتى كان يقول ﷺ: «لا تَكِلْني إلى نَفْسِي طَرفة عَيْن، إكلأني كلاءة الوليد»[2] أي احفظني حِفْظ الوالد الشَّفيق ولده أن يَسْتَرِقَه الغير أو يأْخُذَه.

ولّما تَحقّقَ الأستاذ العيدروس[3] نفع الله به الوراثة المحمديّة من جَدِّهِ ﷺ كان يقول: أنا عَبْدُ الله الـمُفْتَقِر إلى الله في كلّ نَفَسٍ.

---

(1) ذكره الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة (ص٤٩٠ حديث رقم ١١٤٩) : ونقل عن أبي المظفّر السمعاني أنه قال .. : لا يُعْرَفُ مرفوعًا، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازي يعني من قوله وكذا قال النووي: أنه ليس بثابت. وذكره الشيخ ملا علي القاري في كتابه المصنوع في معرفة الحديث الموضوع ص (١٨٩) على أنه من جملة الموضوعات.

(2) الحديث إلى قوله (لا تكلني إلى نفسي طرفة عين) رواه الحاكم في المستدرك (١: ٧٣٠) وهو حسن ، أما الزيادة وهي قوله فيه (إكلأني كلاءة الوليد) فلم أقف عليها.

(3) هو السيد عبد الله بن أبي بكر بن عبد الرحمن السقاف المشهور بالعيدروس. ولد بمدينة تريم سنة ٨١١هـ، وأخذ العلم عن جماعة من الفقهاء والصلحاء، وبرع في علوم الشريعة الثلاثة: التفسير والحديث والفقه. وجلس للتدريس فتخرج على يديه الكثير، وله عدة مؤلفات. وتوفي بطريق الشحر سنة ٨٦٥هـ ودفن في تريم وعمره أربع وخمسون سنة. الحبشي: عقد اليواقيت ٢: ١١٨ – ١١٩.

فالسَّالك إذا تحقّق بهذا الافتقار فقد تَبِعَ النبي ﷺ في أشرف مقاماته من رؤية شرّ النَّفْس الذَّاتي في مقام طمأنينتها وكمال صفاتها، لأنّ ما بالذّات لا يرتفع بالغير بالكلية، وهذا نَظَرٌ دقيق لا ينكشف إلّا لكامل المعرفة بحيث لا يَغْترّ بما ظَهَرَ من صفاتها ومطاوعتها.

أعظم آفات النَّفْس:

ومِنْ أعظَم آفات النَّفْس على السَّالك أنه ربّما يترائى له باهتزاز النَّفْس دعوى الفَناء بالله تعالى والبقاء به وهما من خواصّ القَلْب ونَهَضَاتِهِ، والنَّفْسُ كاذبة في دعوى ذلك إذْ لا وجود لها معهما، فكيف تَدَّعِيهَما؟

لكنه يَشْتَبِهُ الأمر على السَّالك فيظُنّ أنّه بالله يَصُولُ وبالله يقول وبالله يتحرَّك، فَيَنْسِبُ فِعْلَ نَفْسِه إلى الله والعِيَاذ بالله من ذلك، وذلك حيث ابتُلِيَ بنهضة النَّفْس ووثوبها وهو لا يشعُر بذلك بل يَتَوَهَّمُ أنّه في مَقَام القَلْب وتَنَوُّرِهِ بنور الرُّوح، ثمّ تَظْهَر له غائلة ذلك.

ولا يقع هذا الاشتباه إلّا لأرباب القُلوب وأرباب الأحوال إذا رُدُّوا إلى مقام النَّفْس من غير شعور منهم أو استَرَقَتْ أنفُسُهم السَّمْعَ من القَلْب فتنتهِض فيُردُّوا إليها من غير شُعور منهم بذلك.

الكمل وآفات النَّفْس:

وأمّا الكُمَّل فهم عن ذلك بمعزل، إذ لا يتأتّى لهم دعوى ذلك بالنّسبة إلى أنفسهم، وهذه مَزَلَّةُ قَدَمٍ مختصَّة بمن ذكر إذ يَدَّعون الإلهيّة لأنفسهم، ويَنْسِبون أفعالها إلى الله مع أنّها لم تنتعش قلوبهم بالنُّور الإلهي، ولم تَسْكَرْ بالحال حتى تُعْفَى عنهم تلك الدَّعْوى.

وقد رُوِيَ أن الشِّبْلي[1] قال: شربتُ بالكأس التي شَرِبَ بها الحَلّاج[2] فَصَحَوْتُ وسَكِرَ الحَلاج، فبلغ ذلك الحلاج فقال: لو شَرِبَ بالكأس التي شَرِبْتُ بها لسَكِرَ كما سَكِرْتُ، فَبَلَغَ الجنيد[3] أمرهما فقال: نقبل قول الصَّاحي على السَّكران، فرجح حال الشِّبْلي على حال الحلاج.

ولذلك قالوا: أكثر الشَّطح يكون مِنْ سُكْرِ الحال وغَلَبة سُلطان الحقيقة، فمن ثَمَّ من تمّ صحوه وخَلُصَ عن بقية السُّكرِ ونزلت في قلبه السَّكِينَةُ سَتَرَ الحقيقة بالعلم، ووقف على حدِّ العبوديّة، فاعلم ذلك فإنّه عزيز علمه، إذ تنكشِف به الالتباسات التي لم تزل خَفيّةً على أكثر أرباب القلوب.

---

(١) هو أبو بكر (وقيل: دُلف) بن جَحْدر الشبلي رضي الله عنه، مكتوب على قبره جعفر بن يونس، أصله من خراسان، ومولده بسامراء سنة ٢٤٧هـ، اشتهر بالصلاح والتقوى، وصحب أبا القاسم الجنيد ومشايخ عصره، وتفقه على مذهب الإمام مالك وكتب الحديث، وله ديوان شعر مطبوع. عاش ٨٧ سنة ومات سنة ٣٣٤هـ ودفن ببغداد في مقبرة الخيزران وقبره فيها ظاهر يزار رضي الله عنه. الشعراني: الطبقات الكبرى ١: ١٠٣- ١٠٥، الصفدي: الوافي بالوفيات ١٤: ٢٥، الزركلي: الأعلام ٢: ٣٤١.

(٢) الحلاج هو: الحسين بن منصور الحلاّج أبو مغيث، وهو من أهل بيضاء فارس ونشأ بواسط العراق، ثم انتقل إلى البصرة، يُعدُّ من كبار العبَّاد واالزهاد، صحب الجنيد والنوري وعمرو بن عثمان المكي والفوطي وغيرهم، قتل في عهد المقتدر العباسي بعد أن كثرت عليه الوشايات، وكان مقتله ببغداد في ذي القعدة سنة ٣٠٩هـ. الصفدي: الوافي بالوفيات ١٣: ٧٠ - ٧٥، الشعراني: الطبقات الكبرى ١: ١٠٧- ١٠٩، الزركلي: الأعلام ٢: ٢٦٠.

(٣) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزَّاز، لأنه كان يعمل الخز، وقيل: القواريري نسبة لعمل القوارير، أصل أبيه من نهاوند ومولده بالعراق ببغداد. وكان فقيهًا، وعدّه العلماء شيخ مذهب التصوف لأنه ضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة، وأفتى بحلقته وعمره حينئذٍ عشرون سنة، توفي سنة ٢٩٧هـ وقبره ببغداد. ابن خلكان: وفيات الأعيان ١: ٣٧٣، الشعراني: الطبقات الكبرى ١: ٨٤ وسمّاه: سيد الطائفة، الزركلي: الأعلام ٢: ١٤١.

وقد قال عبد الله بن المبارك[1] نفع الله به في قوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ [الحج: ٧٨] هو مُجَاهَدة النَّفْس والهَوى، وذلك حقّ الجهاد وهو الجهاد الأكبر على ما رُوِيَ في الخَبَـر أنّ رسول الله ﷺ قال حين رجع من بعض غزواته «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[2].

النَّفْس هي العدُوّ الأكبر:

وذلك أنّ النَّفْس هي العدُوّ الأكبر الذي بين جنبيك ومفاسده مُؤبَّدة عليك، وإنّما شرع الجهاد على الكُفّار لدفع مفاسدهم عن المسلمين العابدين لله، والنَّفْس أعظم عائِق منهم وذلك لأنّها أكبر الأعداء، لها دواعي مشتهية وأهوية مختلفة محبطة إلى السفل والهَلاك الكُلِّي، مع إنّه لا يجوز إتلافها لأنّها المركب، ولا يجوز أيضًا تركها، فلا بُدّ من إلجَامِها بلِجامِ التَّقْوى ومنعها عن دواعيها وأهويتها المختلفة التي لا يَطَّلِعُ عليها إلّا آحاد المحقِّقين الممارسين لها.

كيفية إماتة النَّفْس:

فلا بُدّ من جِهَادِها بما يُفِيدُها موتًا جديدًا كلّ حِينْ، وإليـه الإشـارة

---

[1] هو الإمام أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظليّ التميمي المروزي، مولده سنة ١١٨هـ، وكان مسكنه بخراسان، وارتحل كثيرًا مجاهدًا وحاجًا وتاجرًا، وله عدة مؤلفات، وكانت وفاته سنة ١٨١هـ بمدينة هيت على نهر الفرات في العراق ودفن بها لما رجع من غزو بلاد الروم. ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣: ٣٢ ـ ٣٣، الصفدي: الوافي بالوفيات ١٧: ٤١٩، الشعراني: الطبقات الكبرى ١: ٥٩ – ٦٠، الزركلي ٤: ١١٥.

[2] رواه البيهقي في كتاب الزهد ص١٩٨ والخطيب البغدادي في تاريخه ١٣: ٤٩٣ وقد حسَّنه الإمام الحافظ أحمد ابن الصدِّيق الغماري في جزء حديثي خاص كما ذكر ذلك في كتابه المداوي لعلل الجامع الصغير والمناوي .

بقوله ﷺ: «مُوتُوا قَبْلَ أن تَمُوتُوا»[1] وقول الأستاذ عبد القادر الجيلاني:مِتُّ ألف ميتة، وقول الأستاذ أبي بكر العيدروس[2] في مُوَشَّحِهِ:

فِيكُـمْ قُتِلْـتُ أَلْـفَ قَتْلَـــه   مِـنْ قَبْـــل الحِمَـــامْ

وأن يُذَكِّرَها بأنّ الـمَعاصِي كالحَلْوَى الـمَسْمُومَة بل هي أَشَدُّ كما انكَشَفَ ذلك للعَارِفين بالله تعالى، فَهِيَ تَفْعَل في الدِّين كما يفعَله السُّمُّ في البَدَنِ، فكيف للعاقل أن يُقْدِمَ عليها؟

ولِـيُذَكِّرها أنّ لَذَّات الدُّنيا كلّها لو فاتَتْ فَلَيْسَ فيها كثير ضَرَر لسُرْعةِ زَوالِها وبَقاءِ تبعاتِها، وإنّها لا تَصبر في الدُّنيا على قَرْصِ النَّمْلة والضَّربِ بالسِّيَاط والكيَّة وهي آلام متناهية، فكيف تصبر على مقامع الحديد في الآخرة من الملائكة الغِلاظ الشِّداد والإحراق بالنَّار ظاهرًا وباطنًا وَلَسْعِ حيَّات كالجِمال، وعَقَارِب كالبِغَال خُلِقَت من النَّار بلا انقطاع مدى الدُّهُور والأعْصَار، وأنّ الأخلاق المذمومة هي بعينها تنقلب في الآخرة حَيَّات وعَقَارِب، وإليه الإشارة بقوله ﷺ «إنّما هِيَ أَعْمالُكُمْ تُرَدُّ عَلَيْكُمْ»[3].

---

[1] قال الحافظ السخاوي في كتابه المقاصد الحسنة برقم (٥٣٩) : (قال شيخنا ـ يعني الحافظ ابن حجر ـ : إنه غير ثابت) . وقال الشيخ ملا علي القاري في كتابه الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة ص (٣٦٣) : (قلت : هو من كلام الصوفية ، والمعنى موتوا اختيارًا قبل أن تموتوا اضطرارًا ، والمراد بالموت الاختياري ترك الشهوات واللهوات وما يترتب عليها من الزلات والغفلات) .

[2] أبو بكر بن عبد الله العيدروس بن أبي بكر بن عبد الرحمن السقاف. ولد بمدينة تريم سنة ٨٥١هـ، وحفظ القرآن الكريم في صباه، وتعلم على والده ومشايخ عصره، واستوطن عدن سنة ٨٨٩هـ ولم يزل بها حتى وفاته سنة ٩١٤هـ ودفن بمقبرة القطيع الشهيرة بها، وعلى قبره قبة تُزار. الشلي: المشرع الروي ٢: ٣٤-٤١، الحبشي: عقد اليواقيت ٢: ١١٧- ١١٨.

[3] رواه أبو نعيم في الحلية (٥: ١٢٦) وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٤: ٦٨): أخرجه الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرك بسند ضعيف .

فإنها بهذا التَّخْويف تلين كما يلين الحديد بالنَّار الظَّاهرة لأنّ الخوف من حيث هو حار، وأن يُبَشِّرَها بأنّ الطَّاعات كلّها تنفع في الآخِرة كما تَنْفَع الدَّراهم في الدُّنيا، وأن يبشِّرها بأنّها إذا توجَّهَتْ إلى الله تعالى تَلحَقْ بِنُفُوس العَارِفين بالله تعالى الذين لأرواحِهِم حول عَرْش الذَّات تطواف، ولقلوبهم إسعاف من البر الفائض على أرواحهم بإفاضة أرواحهم عليها، ولقلوبهم على نفوسِهم الإفاضات من ذلك لانقلاب هوى نفوسهم عن العَالَم السُّفْلِي إلى العَالَمَ العُلْوِي حتّى أنّها تَرى المشَقَّات اللّاحقة بها أعلى من اللَّذّات الدُّنيَوِيَّة، فَلَمْ تُبَالِ بأهوِيَتِها الفَانِيَة، كما أنّ لاعِب الشَّطرنج لا يُبَالي بلَذائِذ الأطْعِمَة والأنْكِحة إذا غَلَبَتْ لَذَّة اللُّعبة عليه، لكَوْنِها لَذَّة باطنيَّة تَغْلِب اللَّذَّات الظَّاهرة، مع أنّها لَذَّة فانِيَة ولَذَّة نفوس العارِفين لَذَّة باقية فلا تُقَابِلها هذه اللَّذَّة.

وأن يُذكِّرها ما أعدَّ الله لأحبابه في جنّة عدن ممَّا لا عَيْنٌ رَأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَر. ولَذَّة النَّظَر إلى وَجْهِ الله الكَرِيم الذي هو أعظَم اللَّذَّات، فإنّها بهذه الذِّكرى تتدرَّج إلى الاطمئنان فَيَهُونُ أمرُها وإلّا فغلبتها ليس بعذرٍ لصاحبها إذ لا سُلطان لها عليه إلّا بما أطمعَها.

سبب محبَّة النَّفْس:

وأمّا احتجاجُ النَّفْس بالقَدَرِ من جهة ارتكابها المعصية فهو أعظم من معصيتها كما نَبَّه عليه أهل المَعْرِفة بالله تعالى، واعلم أنّ النَّفْس إنّما خَفِيَتْ عيوبها على أكثر النَّاس لأنّها عدوّ محبوب، والـمُحِبُّ يكون أعمى عن عُيُوب محبوبه بحيث لا يكاد يراها عيوبًا، إذ مع المحَبَّة لا يَراها عيوبًا،

ولصعوبة أمرها قال القُطْبُ العيدروس نفع الله به: أجمع الصُّوفيّة على أنّ الحجب بين العبد وربّه نفسه، أعاذنا الله بقدرته من شرِّها آمين. ومن ثمّ قال الله تعالى لبعض أحبّائه: اترك نفسك وتعال.

الفرق بين هواجس النَّفْس ووساوس الشَّيطان:

واعلم أنّه قد فَرَّقَ العَارِفون رضي الله عنهم ونفع بهم بين هواجس النَّفْس وهي خواطرها الطالبة حظوظها وبين وساوس الشَّيطان مع أنهما يشتركان في الشَّرّ، وقالوا: إنّ النَّفْس إذا ألقت الخاطر لطلب شيء تقيم عليه حتى تصل إلى مرادها، ولا ترضى بدون الوصول إلى ذلك الأمر المعيَّن، وإنّ الشَّيطان إذا دعاه إلى زلّة ولم يُجِبْ يوسوس بأخرى من غير إلحاح على الأولى ولا الأخرى، إذ لا غَرَضَ له في تخصيص زَلّة دون أخرى حتى يَلِجُ في زلَّة معيّنة، بل مراده الإغواء كيف أمكن فإذا لم يمكن بواحدة وسوس بأخرى.

ويُقاس على هذا الفَرْق بين خاطر الحَقّ وخاطر المَلَك، فإنّ المَلَك كان غرضه الإرشاد، فإذا لم يمكنه تحصيله أخذ يلهم بأخرى، وأمّا الحَق فإنّه في إلقاء الخاطر لعلمه بصلاح العَبْد وعنايته يَلِحّ عليه، لكن لا كإلحاح النَّفْس، بل يُعَقِّبُ بخاطرٍ آخر.

وتكلَّم العَارِفونَ رضي الله عنهم في الخاطِرَيْن إذا كانا من الحَقِّ بأن كانا خاطِرَيْ خَيْر، وكان عليهما نوع إلحاح أَيُّهما يَتْبَع الأَوَّل أم الآخر؟

فقيل: يتبع الأوَّل، لأنّه لمّا كان خاطِر الحقّ فلا بُدّ أن يبقى إلى خطور الثَّاني وبعد الثَّاني، فيكون محلّ التأمُّل فيحصل فيه العِلْم بأنه إلهي، بِخِلاف الثَّاني فإنّه قَلَّ التأمُّل فيه، فلا يَتِمّ العِلم به إذ شرط العِلْم التأمُّل.

وقيل: يَتْبَع الثَّاني لأنّه لما ورد عليه الخاطر الأوَّل تَنَوَّرَ به لكن لم يعمل به لما رأى فيه من الرُّخصة، وهو صاحب هِمَّةٍ في العزيمة فهو أقوى بنور الأوّل.

وقيل: هما سواء لأنّهما من الحَقّ، وكما يُحْتَمَلُ كون الثَّاني عزيمة يحتمل كونه رخصة عند رؤية ضعف العبد بالأوَّل فلا ترجيح بالأوليَّة، ولا يحتاج إلى التمييز بينهما بأن أيّهما عزيمة فيمضي وأيهما رخصة فيترك، لأنّ الخاطر قد يُراد به الرِّفْق، فالرُّخصة فيه أوْلَى من العَزِيمة، إذْ ربَّما يَعْقُبُ الرُّخصة وارد سرور أو بسط، والعزيمة وارد حزن أو قبض. أهـ.

الواردات أعمّ من الخواطر:

قال العارفون قَدَّسَ الله أسرارَهم: والواردات أعَمُّ من الخَواطِر، لأنّ الخَواطِر لكونها كلامًا نفسيًّا تختصّ – أي تتعلّق- بذات صاحب الخَواطِر بنوع خطاب مما يتعلق به صاحب الخواطر أو بغيره أو مطالبة منه، والوارد كلما ينزل من جهة الحَقّ على القَلْب – خواطر أو غيرها – كوارد السُّرور عند مشاهدة الجمال، ووارد الحزن عند مشاهدة الجلال، ووارد القبض عند توقّع الحِجاب، ووارد البسط عند توقّع الكَشْف.

وبنور التّوحيد يَقْبلُ السَّالك الخاطر من الله تعالى، لأنّه إذا غَلَبَ عليه التَّوحيد قرب من الواحد القهّار، فقيل: الخاطر من نور التَّوحيد المتجلّي على روحه، وبنور المعرفة يَقْبَلُ الخَاطِر من المَلَك، لأنّه إذا عَرفَ ناسب العقول والنّفوس السَّماويّة فالتحق بالملائكة، وبنور الإيمان، أي بنور بصيرة القَلْب يَرد هدى النَّفْس، لأنّ النَّفْس مُتَطَلِّعةٌ إلى خِسَّةِ الأهوية النَّفسانيَّة،

ومع خِسَّتِها - أي النَّفْس ـ تفوت اللَّذّات الحقيقيّة، وبنور الإسلام أي ظاهر الشَّرع يُرَدُّ العدوّ وهو الشَّيْطان.

الكامل في الطريق والقاصر:

وهذا كلّه في حَقّ الكامل الذي أدرك حقائق الزُّهد حتى تَنوَّرَت بصيرتُه وصَفَت معرفته وانتهى إلى عالَم التَّوحيد، وأمّا القاصر وهو من قصر عن دَرْك حقائق الزُّهد - فضلًا عمّا فوقها ـ من تَنَوُّر البَصِيرة وصفاء المعرفة والانتهاء إلى عالَم التَّوحيد، فإنّه يَزِنُ الخَاطِر أوّلًا بميزان الشَّرع، فإن كان فرضًا أو مندوبًا يمضيه، وإن كان محرَّمًا أو مكروهًا ينفيه، فإن استوى الخاطِران لكون كلٍّ منهما مُباحًا فليُنَفِّذْ أقربهما إلى مخالفة هوى النَّفْس بعد التأمُّل التَّام في الأهوية الكامنة، ويعتقد أنّ النَّفْس لا تخلوا عن ذلك، فما لم يظهر وجه الهوى فلا يُمضي شيئًا منهما.

فإنّ النَّفْس قد يكون لها هوى كامن في أحدهما، ولا بدّ أن يكون من الأمور السفليَّة لمناسبتها لها، إذ الغالب من شأن النَّفْس الاعوجاج بالرُّكون إلى الدُّون لكونه سفليًّا مثلها، ولذلك قال الشَّاعر:

إذا التبس الأمْرَانِ فالخَيْرُ في الَّذي ... تَــــرَاهُ إذا كُلِّفَتْــهُ النَّفْس يَثْقُــلُ

تلبيسات النَّفْس والتّفريق بينها:

وكثيرًا ما تلبس النَّفْس الـهَوى الكَامِن بنشاط القَلْب حتّى إنّه قد ينزل الخَاطِر الدَّاعي إلى العِبَادة بنشاط النَّفْس بسبب هَوَاها الكامِنْ، وذلك لِـمَا فيه من عُجْبٍ أو رياءٍ أو غيرهما.

والعبد يَظُنُّ أنّه بنُهُوضِ القَلْب اغترارًا بظاهره لدعوته إلى العِبَادة، ومن ذلك أنّ العَبْد يجد الرُّوح بالخروج من خلوته إلى بعض الصَّحاري والبساتين، ويسهل له معه الذِّكْر والفِكْر وسائر المَساعي القلبيّة، فيظُنّ أنّه من طيبة القَلْب، وليس كذلك وإلّا لما ضَرَّه إذا عاد إلى خلوته كما سيأتي، بل هو من نشاط النَّفْس، وإنّما ترائى له ذلك الوقت إنه من طيبة القَلْب ولَبَّسَ عليه، وسبب رؤيته إيّاه في ذلك الوَقْت أنه من طيبة القَلْب أنّ النَّفْس تنفسِح لخروجِها عن مضيق الخلوة وتتّسع ببلوغ غرضها وهو تسهيل هواها بالخروج إلى الصحراء والتنزُّه بفلواتها وأشجارِها وسائر آثارِها.

وإذا اتَّسَعَت النَّفْس بَعُدَت عن القَلْب وتنحَّت عن إيذائِه وجَذْبه إلى أهويتها، بل تكون ناظرةً إلى متعلِّق هواها ممّا تراه في الصَّحراء فيتروَّح القَلْب عن إيذائها. حينئذٍ لا بالصَّحراء نفسها، بل من حيث أنّ نفسه تعلُّقَت بالنَّظَر إلى ما في الصَّحراء فبَعُدَت عنه فلا تؤذيه، فتأَتَّتْ له الأذْكارُ والأفْكارُ بسهولة وصفاء.

فهذا التَّرَوُّحُ يُبْعِدُها لكونها كانت ثقيلة عليه عند توجُّهه إلى معاملاته، فيكون كشخص تباعد عنه قرينٌ يستثقله، فيتروَّح ما دام متباعدًا عنه ذلك القرين، فما دام العبد في الصَّحراء يكون كذلك، وإذا عاد إلى خلوته واستفتح ديوان معاملته مع الله وميَّز حالته حينئذٍ من الحالة التي كانت له إذ كان في الصَّحراء يجد النَّفْس مقارنة للقلب، لأنّها إنّما كانت متباعدةً عنه لتنزّهها بالصَّحراء، فلمَّا رجع منها رجَعَتْ إليه مع مزيد ثُقْلٍ فيها موجب لتبرّم القَلْب منها أكثر من تبرّمها الأوّل معها، لأنه قد زاد

ثقلها وكلّما زاد ثقلها تَكَدَّرَ القَلْب، والقلب يتبرَّم بما يوجب كُدورته، لأنّ الكُدورة خلاف طبعه الذي فطر عليه من الصّفاء.

وسبب زيادة ثقل النَّفْس بعد الرُّجوع من الصَّحراء أنها كانت في الصَّحراء مسترسلة في تناول هواها بالتنزُّه فيها، وهذا يوجب غلظها وتقويتها، فظهر حينئذٍ أنّ الخروج إلى الصَّحراء كان عينَ الدَّاء بحسب ما يؤول إليه، وقد كان العَبْد أوّلًا يظُنّ أنّه ترويح القَلْب وهو دواه، ولا يظُنّ أنّه نشاط النَّفْس، ولكن بعد عوده إلى خلوته تبيَّن له خطأ ظنِّه وإن كان مُلبَّسًا عليه، فلو صبر العبد على وحدته في محلّ خلوته ولم يكن خرج إلى الصَّحراء لزادت نفسه ذوبانًا بصنع هواها وخَفَّتْ، وكلَّما خَفّتْ لَطُفَتْ، وكلّما لَطُفَت صارت قرينة صالحة للقَلْب فلا يستثقلها.

يُقاس على هذا التَّرَوُّحُ بالصَّحراء الذي ظهر في العاقبة أنّه كان عين الدَّاء التروُّح بالأسفار، فإنّه ربّما يظهر كذلك، إلّا إنْ عُلِمَ بعلْمٍ خاص يقيني أن ليس خاطر السّفر ونحوه من النَّفْس، فليمضه بحسن النيّة طالبًا من الله العِصْمة من نفسه.

سكون القلب إلى النفس:

وقد يكون ذلك الخاطر الذي تقدَّم الكلام فيه بنهوض القَلْب كما يظُنّ العَبْد، لكنه قلب فيه نفاق مع صاحبه لسكونه إلى النَّفْس مع إخفاء ذلك على صاحبه، قال بعض العارفين قَدَّس الله سِرَّهُ: منذ عشرين سنة ما سَكَنَ قلبي إلى نفسي ساعة. فلولا أن للقلب سكونًا إلى النَّفْس لَـمَا كان لنفيه عنه معنى، فتظهر من سكون القَلْب إلى النَّفْس خواطر تشبه الخواطر

الرّبّانيَّة التي تأذن بالسِّعَةِ، مع أنه لم يدخل وقتها، ويشتبه ذلك على مَن يكون ضعيف العلم لا يعرف وقت السِّعَة، ولذلك لا يُدْرِك نفَاق القَلْب في الخواطر المتولِّدة من سكونه إلى النَّفْس إلّا العُلَماء الرَّاسِخون في عِلْم النَّفْس وصفاتها حتى إنّهم يعلمون وقت السِّعَة من وقت الضَّرورة بسبب رسُوخِهم في ذلك العِلْم.

وأكثر ما تدخل الآفات على أرباب القُلوب الآخذين من اليقين مع كمال التيقُّظ والحال بنصيب من هذا القبيل، وذلك لقلّة علمهم بالنَّفْس حتى تُشْتَبَهُ بالقَلْب، وقِلَّةِ عِلْمِهم بالقَلْب وسُكونه إلى النَّفْس، وذلك لبقاء نصيب الهوى فيهما، أما في النفس فبالذات، وأما القلب فبواسطة سكونه إلى النفس، فمرجع الاشتباه بقاء بقية الهوى فيهما، فينبغي أن يَعْلَمَ العبد قطعًا أنه مهما بقي عليه أثر من الهَوى وإن دَقَّ وقَلَّ يبقى عليه بقيّة من اشتباه الخَواطِر، لأنّ النَّفْس تشتبه بالقَلْب، والقَلْب يميل إلى النَّفْس بواسطتها.

وإذا انعدمت بالكُليَّة فلا غرض لها في التَّشبيه بالقَلْب على سبيل التَّلبيس، وما للقلب سكون إلى النَّفْس بل إلى الرُّوح، وهذا الاشتباه لما كان في غاية الصعوبة بحيث لا يقدر على رفعه إلّا الرَّاسِخون، يُرْحَمُ الغالط فيه إذا كان قليل العِلْم بمعرفة أمر النَّفْس والقَلْب فلا يؤاخذ بإمضاء خاطر النَّفْس إذا اشتبه بالقلب أو القَلْب السَّاكن إلى النَّفْس ما لم يكن عليه من الشَّرع مطالبةٌ ظاهرةٌ.

وأمَّا إذا غلط مَن كوشِف بأسرار النَّفْس والقُلوب واطَّلَعَ على طريقة خفيّة في التَّمييز ثم استعجله الطَّبع، فغلط باشتباه النَّفْس بالقَلْب أو سُكون القَلْب إلى النَّفْس فلا يُسَامَح في ذلك.

جهات ورود الخواطر:

وقد قيل: إنّ لكلّ واحد من الخَواطِر الأربعة جهةً معنيَّةً يَرِد منها على القَلْب، فخاطر من النَّفْس يحس به من أراضي القَلْب، لأنّ القَلْب متوسِّط الرُّوح والنَّفْس، والرُّوح علوي من عالم الأمر، والنفس سفلية من عالم الخلق، وخاطر من الحَقّ يحسّ به من فوق القَلْب لأنه تعالى فوق الكلّ، على أنّ إلقاء الخاطر أوّلًا على الرُّوح وهو فوق القَلْب، وخاطر من المَلَك يُحِسُّ به عن يمين القَلْب لأنّ المَلَك جاثم على يمين القَلْب لأنّه جهة قويّة أخرويّة، وخاطر من الشَّيْطان يحسّ به عن يَسَار القَلْب، لأنّ الشَّيْطان جاثم على يَسَاره لأنّها جِهَة ضعيفة دنيويَّة.

تأثير نور الذِّكْر على الشَّيْطان:

وهذا الذي قيل من إحساس كلّ خاطر من جهة معيَّنة إنَّما يصحّ لعبد أذاب نفسه بالتَّقوى والزُّهد حتى حصل الصَّفاء لجميع ظاهره وباطنه، ومن هذا الصفاء حصلت الاستقامة لظاهره وباطنه، فحصل كلّ شيء في موضعه المُعيَّن، ولولا هذه الاستقامة لأتى الشَّيْطان من الجوانب كلِّها كما قال: ﴿ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧]. وعلى تقدير التَّعَيُّنِ لا يعرف الشَّيْطان أنّه من أيّ جانب وَرَدَ عند عدم الصَّفاء، وأمّا عند الصَّفاء فإنّه يصيرُ قلب العبد كالمرآة المجلوَّة لا يأتيه الشَّيْطان من ناحية إلّا ويُبْصِره فيأخذ الشَّيْطان موقعًا مُعَيَّنًا، إذ لا يبقى له موضع آخر يسعه لاشتغال العبد بما يختصّ به عند استقامته الحاصلة من صفاته، وإنّما يبقى للشَّيْطان موضع مع استقامة العبد لأنه ربّما يغفل العبد فيجد الشَّيْطان

فرصة لكن العبد كثيرًا ما يُبْصِره بأقلّ ذكر قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. والذِّكْر موجب للنُّور الْمُوجِب للإبصار ونور الذِّكر يَتَّقِيهِ الشَّيْطان كاتِّقَاءِ أحدنا النَّار وقد قال ﷺ: «إنّ ذِكْرَ الله تعالى في جنب الشَّيْطان كالأكلة في جنب ابن آدم»[1]، وقد قيل: إذا تمكَّن الذِّكْر من القَلْب كلّما دنى منه الشيطان صرع فتجتمع عليه الشَّيَاطين فيقول بعضهم لبعض ما لهذا فيُقال مَسَّهُ الإنس، ولعَظَمَةِ سِرّ الذِّكْر أنّه إذا تَوَهَّمَ السَّالك أنه أكل طعامًا فيه حرام أو شُبهَة وكان كذلك في نفس الأمر ثم اشتغل بالذِّكْر بعد ذلك أذاب سِرُّ الذِّكْر جميع ذلك فاعلمه فإنه ينفعك في هذا الزَّمان الْمُبارك وأمّا إذا اسْوَدَّ قلب العبد كلّه بحيث علاه الرَّين فلا يُبْصِر العبد الشَّيْطان أصلًا سواء تعيَّنَت له جهة أو لا فيشتبه عليه الأمر وذلك عند عدم كمال التَّقْوى والزُّهد كما قال ﷺ«إنّ العبد إذا أذنَب ذنبًا نكتت في قلبِه نكتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل فإن عاد زيد فيه حتى يعلو قلبه الرين»[2]. قال الله تعالى: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]. فالواجب على العبد أن يُبَادر إلى التَّوْبة فورًا إذا وقع في الذَّنْب وإلّا علا قلبه الرِّين الموجب للكفر والعياذ بالله تعالى منه، ولا يترك التَّوبة موافقة

---

[1] رواه الديلمي في مسند الفردوس (٢: ٢٠٧-٢٠٨) من حديث ابن عباس مرفوعًا وفي إسناده العلاء بن مسلمة رموه بالوضع ، ورواه أبو نعيم في تاريخ أصبهان (٤٠٣٣٢) كلامًا لكعب، ولا يثبت.

[2] رواه الحاكم في المستدرك بهذا اللفظ (٢: ٥١٧) ورواه الترمذي (٣٣٣٤) في كتاب التفسير باب (ومن سورة ويل للمطففين) بلفظ «إنّ العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر..» الحديث وقال: هذا حديث حسن صحيح ، وكذلك رواه بلفظ قريب منه ابن ماجه في السنن (٤٢٤٤) .

لهوس النَّفْس كأن تقول له النَّفْس قد تتوب من هذا الذّنب ثم تعود إليه فتقول لها وما يدريك أن الموتَ يأتيني قبل أن أعود إليه فأموت تائبًا منه، كذلك لا يترك التَّوبة يأسًا من قبولها فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥]. هو العبد يُذنب الكبار[١] ثم يقول قد هلكت لا ينفعني عمل، أي لا توقعوا أنفسكم باكتسابكم الكبائر إلى التَّهْلُكة باليَأس بعدها بأن تزعموا بأن لا ينفعكم عمل أصلًا فإنّ اليَأس مانع من التَّوبة موجب للتَّهلكة فليحذر العبد منه.

وليعلم أنّ العبد إذا خاف من الانتقام بترك التَّوبة ورجاء المغفرة بفعل التَّوبة واستقام في ذلك فقد تحقَّق بحقيقة التَّوبة النَّصوح وصار الرَّجاء والخوف مقامين في حَقِّه.

كيفية تفرُّع الخواطر:

واعلم أنه لم يذكر عنه ﷺ من هذه الخواطر الأربعة في القَلْب غير لَـمَّة المَلَك ولَمَّة الشَّيْطان فيكون القَلْب معترك جنديهما فقط، ومن ثمّ قال بعضُهم رحمه الله تعالى: هاتان اللمَّتان هما الأصل والخاطران الآخران فرع عليهما لأنّ لَمَّة المَلَك إذا حرّكت الرُّوح لإلقاء همّة صالحة في القَلْب واهتزَّ بالهِمَّة الصَّالحة إلى حضائر القرب ورد عليه ابتداء القرب خواطر من الحَقّ، ولَمَّة الشَّيْطان إذا حُرِّكَتْ هوت النَّفْس بجبلتها إلى مركزها من الغريزة والطّبع، وظهر منها بحركتها خواطر ملائمة لغريزتها وطبيعتها وهواها بحيث تُلِحُّ بذلك وتُصِرُّ على طلبها، وأما إذا تحقّق السَّالك بالفناء فتنتفي عنه حينئذٍ جميع الخواطر حتى الربّانيَّة، لأنّ الخواطر رُسُل ولا يَحْسُنُ

---

[١] أي يرتكب الذنوب الكبار .

الإرسال مع غاية القُرب، لأنه حينئذ تَجَرد عن الآثار المُحْدَثَة وانغَمَس في بحر الأنوار الإلهية التي لا يمكن تصوّر الخاطر فيها، إلّا أنّ العبد قد يُردُّ من حيث عبوديَّته من مقام الفَناء إلى مقام البَقاء الذي لا يحجب فيه الحَقّ عن الخلق ولا الخلق عن الحَقّ، لأنّهما لا يتغيَّران تغايرهما قبل الفَناء، وحينئذ يرد إليه وجوده الخاص به الذي كان متعلّق أقسام الخواطر مُطَهَّرًا عن الصِّفات الذّميمة التي كانت له قبل الفَناء فيتَّصف بالصِّفات الحميدة الآلهيّة، ويتنوَّر وجودُه بنور الحَقّ من غير مُغايَرة كليَّة تتوهَّم قَبْلَ الفَناء، فيعُود إليه من حيث وجوده الخاصّ به مطالبات النَّفْس وخواطرها الطالبة حقوقها، وهي حينئذٍ استحقَّت إدخال الرِّفْق عليها بإعطاء حقوقها التي لو امتنعت لاختلَّت أفعالها من اختلال عَقْلِها وقُواها، فيَخْتَلُّ الأمر وتعود إليه أيضاً خواطر الحَقّ حينئذٍ وخواطر المَلَك ولا تعود إليه خواطر النَّفْس الطَّالبة للحظوظ، فإن حَصَلَ منها شيء في ذلك فَلا يُمَكِّنُهَا منه فإنّها وإن بَلَغَتْ ما بَلَغَتْ فيها جَهالة لا تُمَيِّز بين ما ينفعها وبين ما يضرُّها، فهي بمثابة الطِّفل الذي يُتَعَاهد بما ينفعه ويُمْنَعُ عَمَّا يَضُرُّه، بل حينئذٍ يُقْسَمُ بينها وبين القَلْب بالعَدْل، وذلك بأن يعطيها القَلْب هواها ممَّا تستحقُّه وتعطي القَلْب حقَّه من المتابعة في طاعة الله تعالى، وكذلك لا تعود إليه هنا أيضًا خواطر الشَّيْطان كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وأما الحديث الذي أشَرْنا إليه فيما تقدَّم فهو ما رواه عبد الله ابن مسعود –رضي الله عنه– وهو قوله ﷺ «إنَّ للشَّيْطانِ لَـمَّةً[1] بابنِ آدم وللمَلَكِ

[1] قال الجزري في النهاية في غريب الأثر والحديث (٤: ٥٥٦) في معنى اللمة بأنها : [الخَطْرَة تَقَع في القلب أراد إلْمام المَلَك أو الشيطان به والقُرْبَ منه فَما كان من خَطَرَات الخَيْر فهو من المَلك وما كان مِن خَطَرَات الشَّرِّ فهو من الشَّيطان] .

لَـمَّة، فأمَّا لَـمَّة الشيطان فإيعاذ بالشَّرّ وتكذيب بالحَقّ، وأمَّا لَـمَّة المَلَك فإيعاذ بالخَيْر وتَصْديق بالحَقّ، فَمَن وَجَدَ ذلك فليَعْلَم أنَّه من الله سبحانه وتعالى فَلْيَحْمد الله، ومَن وَجَدَ الأخرى فَلْيَتَعوَّذ بالله من الشيطان الرَّجيم»[1].

ثُمَّ قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] انتهى، وذلك لأنّ أفعال بني آدم تابعةٌ لإرادَتِهم، وإرادَتهم تابعةٌ لاعتقادهم النَّفْع في الطَّلَب والضَّرَر في الهَرَب، والاعتقاد قد يكون صحيحًا بأن يكون ما اعتقد نفعه نافعًا في الدِّين والدُّنيا أو الدِّين وحده، وكذا ما اعتقد ضرّه، وقد يكون فاسدًا.

والتمييز بين النَّفع الصَّحيح والضَّرّ الصَّحيح وغيرهما لا تفي به القوّة البشريّة، بل لا بُدّ من قوّة خارجيّة إما ملكيّة تُرِيَهُ الشيء كما هو، أو شَيْطانيَّة تُلبسُ عليه، وإنّما قُلْنا أنّ القوّة البشريَّة لا تفي بذلك لأنّ إدراكه بالحَواسّ يَقْصُرُ على الأمور الظَّاهرة، وبالعقل لا يخلوا عن تصوُّر ما لم يتجرَّد العقل عن العلائق الظلمانيَّة بالتأييد بنور البصيرة على ما يشهد به الوجدان، فلا بُدّ من قُوَّة خارجيّة بشريّة مناسبة للشيطان من حيث إنّه مخلوق من النَّار وهي في خِلْقَة الإنسان من حيث هو مخلوق من صلصال كالفَخَّار، فإنّه يُفْهَمُ منه أنّ النَّار دخَلَتْ في خِلْقَةِ الإنسان كدخول النَّار في الفَخَّار.

أثر لمة الملك والشيطان:

وكذا لا بُدّ من مناسبة للمَلَك، وتلك المناسبة من حيث قلب الإنسان أو روحه لأنّ كلًا منهما من عالم الأمر، ثم ذكر ﷺ أَثَرَ لَـمَّتَيْهما

---

[1] أخرجه الترمذي (٢٩٨٨) في كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة البقرة وقال: حسن غريب. وصححه ابن حبان (٩٩٣).

ليَستدِلّ على الأثر بالمؤثّر، وهو أنّ لَـمَّة الشيطان تؤثِّر بإيعاد الشَّر بأن يُخَوِّفَ الشيطان بالفقر عند السَّخاء، وبفوات اللذَّات الحاضرة عند ترك المشتهيات، والإفضاء إلى التّلف والفخر أو الذلَّة عند عدم إمضاء الغضب ويخوف بالتّعب عند العبادات أو عند ترك الدُّنيا، وأمّا تأثيرها بالتّكذيب فهو بإنكار الصّانع والأنبياء والأولياء والأمور الأخرويّة التي يُتْرَكُ لها إمضاء المشتهيات والغَضَب.

وقَدَّمَ بَحْثَ لَـمَّتِه على بَحْثِ لَـمَّةِ المَلَك ليتطهَّر منه حتى يتحقَّق بمعرفة لَـمَّة المَلَك، وأرشدنا ﷺ إلى أنَّ لَـمَّة المَلَك تؤثِّر بإيعادها الخَير ما يوجب انتظام أمور الدَّارين والتقرُّب من رَبّ العالَمين، والتخلُّق بأخلاقِه والتعرُّض لثوابه والهَرَبَ من عقابه في ترك الشَّهوة والغَضَب.

وأرشَدَنا أنّ لَـمَّة المَلَك تؤثّر بالتَّصديق بالحَقّ سبحانه وتعالى المُجَازِي على ذلك التَّصديق بالتَّصديق بالنبوّة والولاية والأمور الأخرويّة وإثبات كلّ واحد من هذه الأمور بالأدلّة العقليّة أو الكشفيّة وإزالة الشُّبهة عنها، ثمّ قال عليه السلام: «فَمَنْ وَجَدَ ذلك الخاطر المَلَكيِّ فليعلم أنّه من الله تعالى»، لأن المَلَك واسطة بين الرَّبِّ والعَبْد في إيصال العَبْد إلى مراضي الرَّبّ والتجليّات الجماليّة، وليحمد الله ليكونَ شاكرًا على هذه النِّعْمة فتنمو عليه ويستزيد منها، قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[إبراهيم: ٧].

ومَن وَجَدَ الخطرة الأخرى - أي الشَّيْطانيّة - فليتعوَّذ بالله من الشيطان فإنّه الكلب المتسلِّط من جهة الله على العَبْد فلا يندفع إلّا بالتعوُّذ بالله منه لعَجْزِ القوّة البشريّة عن دَفْعه بالمجادلة في أكثر الأوقات، لكن إنّما تفيد استعاذتك بالله من الشيطان إذا فَعَلْتَ ما يحبّه الله وهو صَدُّكَ خطرة

الشيطان عندما تظهر في الحين، والإعراض عنها بالكليّة لا بمجرّد قولك: أعوذُ بالله من الشيطان، فإنّ من قَصَدَهُ سَبْعٌ ليفترسه أو عَدُوّ ليقتُلَه فقال: أعوذُ منك بذلك الحِصْن الحَصِين وهو ثابت في مكانه لا ينفعه ذلك، بل لا بُدّ من تبديل المكان، وقِسْ على ذلك في جميع أحوالك مع الشيطان خطرات أو غيرها.

ثم قرأ عليه السلام الآية في الاستدلال على اللَّمَّتَيْنِ مع بيان أن اللَّمّة المَلَكيّة من الله تعالى، قال بعضُهُم رحمه الله تعالى: ويُفْهَمُ من الآية أنّ الشَّيْطانيّة من النَّفْس من بعض الوجوه أيضًا، ويُفْهَمُ من الآية أثر اللَّمَّتَيْنِ أيضًا.

أمَّا أَثَرُ لَـمَّةِ الشيطان فهو المُشار إليه بقول الله عزّ وجلّ: ﴿**ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ**﴾ [البقرة: ٢٦٨]، أي فَوَات المال واللذَّات من غير تعقيب عِوَض على ذلك، فهو إيعاد بالشَّر وتكذيب بالحَقّ، ﴿**وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ**﴾ [البقرة: ٢٦٨]. أي بالتّكذيب بالحَقّ، مع كثرة الدّلائل عليه وبإمضاء الشّهوات والغَضَب في غير الأمر المشروع مع أنّ لهما أثرًا فاحشًا في العاقبة وفي تخريب أمور الدَّارَيْن لمن تَفَكَّر، وأمّا أثر لَـمَّة المَلَك فهو المُشار إليه بقوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿**وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ**﴾ [البقرة: ٢٦٨]. أي سترًا لأنّ فيه الموجب للقرب منه وسَتْرُ الصِّفات الذّميمة، وفضلًا بتعقيب ما هو خير ممّا أخذ وبتعقيب التجلِّي الخاص الجَمالي، فهو إيعاد بالخَيْر وتصديق بالحَقّ.

وإنّما جعل لَـمَّة مَلَكيَّة لأنّ لَمّة المَلَكِ موجبة للتجرّد المَلَكي وهو أقرب إلى الإطلاق الإلهي وأبعد من العلائق الجسمانيّة، وإنّما فهم من الآية أنّ الشَّيْطانيّة من النَّفْس من وجه لأنّ الشيطان إنما يفعل بواسطة هوى

النَّفْس وغضبها، فيرى ما تهواه نافعًا حقيقيًّا وما تغضب عليه ضارًّا حقيقيًّا من غير نظر إلى ما يعقب الضَّرر والنّفع المذكورين. انتهى والله أعلم بحقائق الأمور.

وأمّا العقل فهو يكون مع خاطر النَّفْس والشَّيطان تارة ليتميّزا عن الخاطر الرَّبَّاني والخاطر المَلَكي، فيُؤثِّر ذلك في إثبات الحُجَّةِ على العبد لدخوله في الشيء بوجود عقل، إذ لو فقد العقل سقط العقاب والعتاب، ويكون مع خاطر الحَقّ والمَلَك تارة أخرى ليُوقِعَ العبدُ الفعلَ مُختارًا مُمتثلًا للأمر فينتج له ذلك الرِّضا والثّواب.

فائدة لجلب خواطر الخير وصرف أضدادها:

وقد قال بعض العارفين: إنّ ممّا يفيد انصباب الخواطر الإلهية والمَلَكيّة قراءة سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]. وإنّما يفيد قطع الخواطر النفسانيّة والشَّيْطانية قراءة سورة: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون: ١].

تنبيه له تَعَلقٌ بما في هذه التعليقة:

ليكن في ذهنك أيّها الطالب الرَّاغب أنَّا كلّما ذكرنا في تعليقتنا هذه الرُّوح فمرادنا الرُّوح الذي هو من عالَم الأمر لا الرُّوح الحيواني الذي هو من عالَم الخَلْقِ، وهو الذي نُعَبِّرُ عنه في هذه التّعليقة بالنفس، وهذا الرُّوح الحيواني موجود عند جميع الحيوانات، إذ هو مَنبَعُ القوى المُدركة: كالسَّمع والبَصَر والشَّم والذَّوق واللَّمس، وهذه موجودة في سائر الحيوانات فمنبعها موجود فيها، وتَكَوُّن هذه الرُّوح يكون من البخار اللطيف الأرضي، أي لأنه من الغذاء الذي أصله التّراب، وهو مُنْبَعِثٌ من القَلْب

المعروف عند العامّة، ويُنْشَرُ هذا الرُّوح الحيواني في طريق تجاويف العروق والضّوارب الذّاهبة إلى سائر البَدَن.

وهذا الرُّوح الحيواني لكونه من الأغذية يُتَصَرَّفُ فيه بعلم الطِّب بدلالة حركته في النّبض باعتدال مِزَاج الأخلاط وعدم اعتدالها بحسب حركته، وهذا الرُّوح الحيواني يكون في الجنين وهو مضغة بعد تهيئة أسباب تصرفه في البَدَن، وبعد حصول القَلْب اللحمي له والعروق، ثم يَخْلُقُ الله المضغة عظامًا فيكسوا العِظام لحمًا ثم ينفخ فيه الرُّوح الذي يختص بالإنسان.

المراد بالقلب:

وكذلك إذا أطلقنا القَلْب في هذه التّعليقة فمُرادُنا به اللّطيفة الإنسانيّة التي هي من عالم الأمر، وهي المسمَّاة النَّفْس النّاطقة عند الحكماء، وليس مُرادنا القَلْب المتعارف عند العامّة: وهو المضغة اللحميّة المعروفة الشّكل الصنوبري المودعة في الجانب الأيسر من الجسد، وهي تحت الثَّدي الأيسر بنحو إصبعين.

وجَعْلُهُ ﷺ المُضغة هي القَلْب كما ورد «أنّ في جَسَد ابن آدم مُضغةً إذا صَلُحَتْ صَلُحَ سائر الجَسَد وإذا فَسدت فَسِدَ سائر الجَسَد، ألا وهي القَلْب»[(١)] إنّما كان على سبيل المبالغة وناط[(٢)] ﷺ صلاح الجَسَد وفَساده بصَلاحِها وفَسادها، فيحصل لهذه المضغة ما يحصل للقلب الحقيقي وإن

---

(١) رواه البخاري (٥٢) في كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه ، ومسلم (١٥٩٩) في كتاب المساقاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات.

(٢) أي وقد علَّقَ، يقال: الأمر منوط به أي: مُتَعلِّـقٌ به.

كان على سبيل الخلافة والنيابة، لأن لتلك اللطيفة الإنسانيّة بهذه المُضغة اتصالًا مًّا وتعلّقًا خاصًّا كأنها عُشُّها ومسكنها ومأواها وبينهما نوع اتحاد كأن الامتياز مفقود.

وقد يشتركان في بعض الأحكام، ويظهر التحرّك في المضغة من ذكر القَلْب الحقيقي، وإلى القَلْب الحقيقي الإشارة بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ**﴾ [ق: ٣٧]. ولو كان المُراد بالقلب هو اللّحم الصنوبري الشّكل فذلك موجود للكلّ حتى البهائم والموتى.

الفرق بين الروح الإنساني والحيواني:

وأما الرُّوح الحيواني المتقدِّم ذكره فهو وإن كان في الأصل عامًّا إلّا أنه صار بورود الرُّوح الأمر العلوي عليه كأنه جنسًا آخر مباين لجنس أرواح سائر الحيوانات، لأنّه اكتسب من تَعَلُّق الرُّوح الأمر العلوي به صفة أخرى من كمال التسوية واعتدال المزاج حتى صار في غاية اللطافة حتى أشبه القَلْب الذي هو النَّفْس الناطقة، فصار نفسًا محلًا للنطق أي محلًا لظهور القوّة المفكّرة التي تتعلّق بالقوّة العاقلة التي هي قوّة القَلْب، وصار محلًا للإلهام أي إلقاء المعاني من غير طريق الحواس حتى صار محلًا للقَسَمِ الإلهي في قوله تعالى: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا** ﴾ [الشمس: ٧]. أقسم بالرُّوح الحيواني عند تسويته باعتدال المزاج لصيرورته نفسًا قابلة لإلهام الفجور والتّقوى اللَّذَيْنِ هما مظهر إجلاله وجماله، وإلهامها إلقاء داعيتهما، فتسويتها بورود الرُّوح الإنساني العلوي الأمري عليها إذ قبل وُرُودِهِ كانت كسائر أرواح الحيوانات بعيدة عن الاعتدال جدًا.

فلمّا وَرَدَ عليه الرُّوح حصل لها اعتدال انقطعت به عن جنس أرواح الحيوانات حتى صارت قابلة لتجلّي الجلال والجَمال معًا، بحيث أَقْسَمَ بها خالقُها حتى كأنه يُقْسِمُ بذاته لاشتباه المَظْهَر بالمظهر.

اهتمامه صلى الله عليه وسلم بأمر النفس:

وعن أبي هلال – رضي الله عنه ونفع به – أنّ رسول الله ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩] وقف ثم قال: «اللهم آتِ نفسي تَقواها، أنت وَلِيُّها ومَوْلاها، وزَكِّهَا أنت خَيْرُ من زَكَّاها»[1]. فهو ﷺ مع كمال حاله كان يهتمّ بأمر النَّفْس لما رأى وقوف الفلاح على تزكيتها، ولم يكن له تزكيتها بنفسه بل بربه بإفاضة التّقوى عليه، فَمِن ثَمَّ قال: «اللهم آتِ نفسي تَقْواها»، أي ما يقيها من المهلكات والنقائص، ثم قال: أنا ضعيف عن ذلك كالصبي: «أنت ولِيُّها» ـ بل عاجز بالكُلِّيَّةِ ـ لأني مُتَّصِفٌ بالعبوديّة وأنت مَوْلاها، ثم قال بعد اتصافها بالتقوى زَكِّهَا عنها وعن كل ما سواك بك، أنت خير من زَكَّاها.

ولما كان هذا الرُّوح الحيواني ليس بعلوي كما ذكرنا، كان قوامه بإجراء سُنَّةِ الله تعالى بالغذاء - أي غالبًا - وإنما قلنا غالبًا لأنّ الله قادر على تقويته من غير غذاء كما يُفْعَلُ ذلك نادرًا عند عدم انهضام الأغذية بمرض أو نحو ذلك.

أسباب عدم التضرر بالجوع والسهر:

ومن ذلك ما يقع لبعضهم من طي أربعين يومًا ونحوها مع عدم تضرّره بالجوع وعدم إحساسه به، وذلك لأحد أمرين: إما نور التجلّي

---

[1] رواه مسلم في صحيحه (٢٧٢٢) في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

الغالب عليه بحيث يمنع النَّفْس من تصرّفها في البدن بالتحليل والتغذية كما في حقّ المريض، وإما الفرح بربّه فإنّ برودتَه تَذْهَبُ بحرارة الجوع، ففي الفرح تَغْلِب البرودة على الحَرارة، وفي الخَوْف تَغْلِب إحدى الحَرَارَتَيْن على الأخرى.

وذلك واقع محسوس كما يقع للشخص أنه يَطْرُقُهُ فرح، وقد كان جائعًا فيذهب عنه الجوع، وهكذا في طروق الخوف يقع ذلك.

ونحو ذلك قولهم: إن سَهَر الأُنْس ما يضر، لأنّ طبع النّوم بارد رطب وطبع الأنس بارد رطب فإذا عُدِمَ أحدهما ووجد الآخر قام مقامه، فلذلك العارفون لأُنْسِهِمْ بالمحبوب الحقيقي ما يضرّهم السّهر.

واعلم أنّ ذلك الفرح بالله تعالى إنّما يحصل لمن يطوي لله خالصًا عن شوب هوى كان في النَّفْس فيعوِّضه الله عند ذلك في باطنه ذلك الفرح بحيث يُنْسِيهِ ذلك الفرح الطعام والشّراب لكونه عن لذّة حقيقيّة قويّة، ولذّة الطّعام إنّما كانت عن لذّة ضعيفة، وأمّا من يطوي من غير إخلاص فهو بمَعْزِلٍ عن ذلك الفرح، وإنّما يُعَوِّضُ الله ذلك المخلص الفرح به لأنه قد خلا عن العوائق الصّادّة له عن طريق الحَقّ فيُصَادِف المحبوب الحقيقي بلا حجاب فيغلبه الفرح حتى نسي الجوع والطّعام والشّراب، وقد لا ينسى الطّعام والشّراب ولكن لَمَّا امتلأ قلبه بأنوار مَنْ تَجَلَّى لروحه انجذب إلى عالم الرُّوح الرُّوحاني بعد ما كان مُتَرَدِّدًا بين الرُّوح والنفس لقوّة جاذب الرُّوح الرُّوحاني حتى إنه ينجذب إلى المركز الأصلي ومُسْتَقَرِّهِ مِنَ العالم الرُّوحاني الذي هو من عالم العقول العالية.

انعكاس أنوار الروح على القَلْب والنفس:

ويعتلي بذلك الجذب عن أرض الشّهوة النفسانيّة لضعف جاذبها كأنه ليس بجاذبٍ أصلًا، وذلك لطمأنينة النَّفْس وانعكاس أنوار الرُّوح

عليها بواسطة القَلْب المُسْتَنِير بنور الرُّوح من وجه المنير للنَّفْس من وجه آخر، فإذا انجذب القَلْب إلى قَعْرِ الرُّوح تَبِعَتْهُ النَّفْس المطمئنّة فَتُجانِسُ القَلْب، فإذا جانَسَتْ النَّفْس القَلْب بانعكاس نور الرُّوح الواصل إليها بواسطة القَلْب فحينئذٍ يصير في النَّفْس روح أي نُورٌ روحانيّ كأنه هو الرُّوح كالحرارة الناريّة في الخشب عند مجاورته للنَّار، فإنّه يصير كأنّه هو النَّار.

وهذه الحالة استمدّها القَلْب من جهة تجرّده من الرُّوح وأدَّاها من جهة المُتَعَلّقِ إلى النَّفْس فتصير النَّفْس كالقلب بل كالرُّوح، فيجذب الرُّوح النَّفْس بواسطة المجانسة الحاصلة بينهما من أثر النّور الرُّوحاني الذي في النَّفْس فتَغْلِبُ عليها الرُّوحانيّة، فتنجذب أيضًا إلى عالم الأرواح وتَلْتَذ باللذّات العالية الحقيقية فتَزْدَرِي الأطعمة الدنيويّة لكونها شهوات خَسيسَة حيوانيّة تشارك فيها سائر الحيوانات وهذه لذّةٌ شريفةٌ تشارك فيها الأرواحُ المُجَرَّدةُ من الملائكة المقرّبين.

وحينئذٍ يتحقّق عند صاحب هذه الحالة معنى قوله ﷺ: «أَبِيتُ عندَ رَبِّي يُطْعِمُنِي ويَسْقِينِي»[1] أي تَسْكُنُ نفسي في المقام الرُّوحاني عند الحضرة الإلهيّة تُطْعمُنِي لذات تجليّاتها وتَسْقِينِي شرابَ مَحَبَّتِها فيصير عِوَضًا عن هذا الطّعام والشّراب المحسوسين لكونهما خسيسين بالنسبة إلى ذلك غايةَ الخسّة، قال ذلك ﷺ حين سُئِلَ عن وِصَالِهِ للصيام مع مَنْعِهِ عنه لغير أهله لئلّا تَضْعُفُ آلتهم فيتخلَّفون عن العبادة المقصودة أيضًا ولا يَقْدِرُ على ما وصفناه من الطَّيِّ إلّا عَبْدٌ تصير أفعاله غير العبادة وأقواله غير التّلاوة

---

[1] رواه البخاري (٧٢٩٨) في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بأفعال النبي ﷺ ومسلم (١١٠٣) في كتاب الصيام باب النهي عن الوصال في الصوم.

والذِّكرِ والتسبيح والاستغفار وسائر أحواله ممّا يتعلّق بأمر الآخرة ضرورية. لأنّ ذلك يُعَوِّدُ النَّفْس الضروريّات فتتناول من الطّعام أيضًا بِقَدْرِ الضرورة، وإلّا ظَهَرت النَّفْس بطغيانها، فإذا طَغَتْ في باب لا تَنْضَبِطُ في آخر، فلهذا لو تَكَلَّمَ مثلًا بكلمة من غير ضرورة التهبت فيه نار الجوع التهاب الحلفا[1] بالنّار، وذلك أنّ النَّفْس الرّاقدة أي التي صارت بالرياضة قريبة من الموت الإرادي الذي هو الفناء، لكنها لم تَمُتْ بالكُلِّيةِ بل أشْبَهَت النّائمة تستيقظ بكل ما يُوقِظُها من الفُضُوليَّاتِ، وإذا استيقَظَتْ عَمِلَتْ بجميع مقتضياتها لأنّها بِوجدانِ الفُضُول انتزعتْ إلى هَواهَا.

وإذا علمتَ أنّ الرَّدَّ إلى الضّرورات واجتناب الفضوليّات شرط القدرة على الطَّيِّ، فالعَبْد المُراد بهذا يَسْهُلُ عليه الطَّي إن فَطِنَ لسياسة نفسه بحيث تَتَمَيَّزُ له الضّرورات من الفُضُوليّات، فلا يمكن أن تُلبس عليه نفسه بدعوى الضّرورة في بعض الفضوليّات، وذلك إذا رُزِقَ العلم الكامل بالتمييز ما بين الضروريّات والفضوليّات، ولم يَزَل ذلك دأبه وحاله مع نفسه إلى أن تُدْرِكَهُ المعونة من الله تعالى بأن يعطيه فرحًا ينسيه الطّعام والشّراب.

لا سيّما إن كوشف بشيءٍ من المِنَح الإلهيّة جزاءً على الصّبر والطّعام فإنه يغلب عليه الفرح لا محالة، كمن فتح عليه بتفّاحة بعد انتهاء جوعه إلى الغاية، وغلبت النَّفْس عليه ففتح التفاحة لقصد أن يأكلها فكوشف

---

[1] قال صاحب النهاية في غريب الحديث (١/ ٤٢٦): (الحلفاء هو نبت معروف وقيل هو قصب لم يدرك). وهذا القصب شديد الاشتعال عندما يجف لرقته، وقد قال القائل:

وكل مودة في الله تبقى ... على الحالين من فرج وضيقِ
وكل مودة فيما سواه ... فكالحلفاء في لهب الحريقِ

بحوراء من الجنة من وسط التفاحة تعطى له جزاءً على الصّبر، ففرح بها واستغنى عن الطّعام أيّامًا وكون الحوراء أُخرجت له من التفاحة لتُظْهِرَ له كرامة في ضمن كرامة، وينكشف له مع عالم الحكمة عالم القدرة.

الإيمان بالقدرة:

والإيمان بالقدرة رُكْنٌ من أركان الإيمان بالله، لأنه إيمان بذات الله تعالى وبجميع صفاته التي وصف بها نفسه في كتابه وعلى ألسنة أنبيائه عليهم الصّلاة و السّلام، وإدخال الشّيء العظيم المقدار في الشيء الصغير المقدار ممّا تتعلّق به القُدرة، لأنّ المقدار من عوارض الشيء، فيجوز أن يَلْبِسَ الدّاخل حال دخوله مقدارًا صغيرًا، فإذا خرجَ أُلْبِسَ مقدارًا كبيرًا مع بقاء مُدَّتِهِ وصورته الأصليّة بحالها فيُسلَّمْ هذا الخَبَر لإمكانه ولا يُنْكَر بمجرّد الاستبعاد.

سرّ القدرة على الطَّي:

وبما ذكرناه تعرف السّر فيما وقع لكثير من أولياء الله من تركهم الأكل والشّرب والنّوم مدّة طويلة كما وقع للشّريف القطب الأستاذ الفقيه المقدَّم محمد بن علي علوي[1] نفع الله به أنه مَكَثَ مائة ليلةٍ بأيّامها لم يَذُقْ فيها طعامًا ولا شرابًا، وكما وقع للقطب الشّريف السيِّد عمر المحضار علوي[2] نفع الله به أنه مَكَثَ أربَعينَ ليلة طاويًا لم يَذُقْ فيها شيئًا، ومَكَثَ

---

[1] هو الإمام الفقيه المقدَّم محمد بن علي بن محمد بن علي بن علوي الحسيني الحضرمي، صاحب مرباط، سيد الطائفة العلوية، ولقب بـ «الأستاذ الأعظم»، ولد بتريم سنة ٥٧٤هـ، وحفظ القرآن الكريم صغيرًا، واشتغل بتحصيل العلوم والأخذ عن العلماء، وله عدة رسائل منها: «بدائع علوم المكاشفات والتجليات»، وكانت وفاته بتريم سنة ٦٥٣هـ. الشلي: المشرع الروي ٢: ٢ - ١١، الحبشي: عقد اليواقيت ٢: ١٢٦- ١٢٧، الزركلي: الأعلام ٦: ٢٨٢.

[2] العلامة السيد عمر المحضار بن السيد عبد الرحمن السقاف باعلوي، وقد تقدمت ترجمته.

أيضًا في أيّام مسيره إلى الحَجّ أربَعينَ أخرى لم يَذُقْ طعامًا ولا شرابًا ولم تنقص قوّته ولم يَضْعف عن المشي ومَكَثَ خمس سنين لا يأكل شيئًا ممّا يقتاته الآدميّون، ومَكَثَ شهرًا لم يَذُقْ فيه إلّا الماء وحده ولم ينقص من قوّته شيء، وكما وقع للقطب الشّريف الأستاذ عبد الله العيدروس علوي(١) نفع الله به أنه أقام مدّة من الأعوام يَصُوم ويُفْطِر على سَبْع تمرات فقط، وكما وقع للأستاذ القطب سعد بن علي(٢) صاحب العيدروس نفع الله بهما أنَّه كان يطوي الأربعين فأكثر على الماء وحده، وكما وقع للأستاذ الشّريف أحمد باجحدب علوي(٣) نفع الله به أنّه مَكَثَ آخر عمره ثلاثة أعوام لم يَذُقْ فيها إلّا القَهْوة فقط.

هذا من جهة الأكل والشّرب وأمّا من جهة النّوم: فمن ذلك ما وقع للقطب الشّريف الأستاذ عبد الرَّحمن السقَّاف علوي(٤) نفع الله به أنه هَجَرَ النَّوْم أكثر من خمسة وثلاثين عامًا، وكما وقع لحفيده الأستاذ عبد الله

---

(١) السيد عبد الله بن أبي بكر بن عبد الرحمن السقاف العيدروس، وقد تقدمت ترجمته.

(٢) هو الإمام الشيخ سعد بن علي بن عبد الله بامدحج الحضرمي التريمي المعروف بالسّويني، تعلم القرآن وحفظه، وقرأ في الفقه، وكان يكثر الخلوة، ولم يتزوج، توفي سنة ٨٥٧هـ. العيدروس: النور السافر ٥٩٥- ٦٠٥.

(٣) الإمام أحمد بن علوي بن المعلم بن محمد بن علي جحدب بن عبد الرحمن بن محمد بن الشيخ عبد الله باعلوي عُرف بجده جحدب، ولد بتريم وأخذ عن أكابر رجالها وكان يُعدُّ في حكم رجال الرسالة القشيرية لشدة ورعه وتقشفه واستقامة طريقته، وله في الزهد بالدنيا روايات. توفي بتريم سنة ٩٧٣هـ. الشلي: المشرع الروي ٢: ٧٠- ٧٣، العيدروس: النور السافر ٣٨٥، ابن العماد: شذرات الذهب ١٠: ٥٤١ .

(٤) الإمام عبد الرحمن بن محمد مولى الدويلة بن علي بن علوي بن الفقيه المقدم، واشتهر بالسقاف لأنه سقف على أولياء زمانه بحاله أي ارتفع عليهم كالسقف للبيت، ولد بمدينة تريم سنة ٧٣٩هـ، وحفظ القرآن وأتقن علم التجويد والقراءات واشتغل بالعلوم وارتحل في سبيل العلم، وكانت وفاته سنة ٨١٩هـ، وقُبر بمقبرة زنبل بتريم. الشلي: المشرع الروي ٢: ١٤١- ١٤٦، الحبشي: عقد اليواقيت ٢: ١٢١- ١٢٢.

العيدروس أنه مَكَثَ أكثر من عشرة أعوام ولم يرقُد ليلًا ولا نهارًا، وكما وقع لصاحب العيدروس سيِّدي سعد بن علي المذكور أنه مَكَثَ مدَّة من الأعوام ولم يَرْقُدْ فيها ليلًا ولا نهارًا، وكما وقع لولد العيدروس سيِّدي القطب الشّريف الأستاذ أبي بكر نفع الله به أنّه مَكَثَ أكثر من ثلاثين عامًا لم يستغرق فيها قطّ في نومه قدر ثلاث ساعات ليلًا ونهارًا، ومثل ذلك كثير وقع لكثير من أولياء الله تعالى، ومن تتبّع مظانَّه وجده فيها.

تنبيه متعلق بالطي:

واعلم بأنّ المعين المذكور من الطَّيّ والتقلُّل لو أنه عين الفضيلة ما فات أحدًا من الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، ولكان رسول الله ﷺ يبلغ من ذلك أقصى غاياته، ولا شكّ أنّ لذلك فضيلة لا تُنْكَر، ولكن مواهب الله لا تنحصر في ذلك، فقد يكون من يأكل كلّ يوم أفضل ممّن يَطْوي أربعين يومًا، وقد يكون مَن لا يُكَاشَف بشيءٍ من أنواع القُدْرة أفضل ممَّن يكاشَف بها إذا كاشَفَه الله تعالى بِصِرف المعرفة، والقُدْرة أثر من المَقام ومَنْ أُهِّلَ لقرب القادر لا يستغرب ولا يستكثر شيئًا من القُدْرة، ويرى أن القُدْرة تتجلّى له من سَجَفِ أي باطن أجزاء عالم الحكمة. فافهم..

وإذا حَصَلَ منّا نوع بسط في هذه التعليقة فيما يتعلَّقُ بالرُّوح الحيواني وهو النَّفْس، وفيما يتعلَّق بالقلب وهو النَّفْس النّاطقة عند الحُكَماء، فلنذكر ما قاله في الرُّوح الإنسانيّة سيِّدنا الجدّ القطب الشّريف الأستاذ شيخ بن عبد الله العيدروس [1] نفع الله بهم، وذلك في كتابه (حقائق التّوحيد ورقائق

---

[1] السيد الإمام الشيخ العارف بالله شيخ بن عبد الله بن شيخ بن الشيخ عبد الله العيدروس، ولد بتريم سنة ٩١٩هـ ونشأ بها، وارتحل إلى الهند سنة ٩٥٨هـ فأقام فيها نحو ٣٢ سنة، وترك عددًا من المؤلفات منها: «العقد النبوي والسر المصطفوي»، و«الفوز والبشرى»، وغيرهما. وكانت وفاته في الهند سنة ٩٩٠هـ بمدينة أحمد أباد بالهند. الشلي: المشرع الروي ٢: ١١٩-١٢٢، العيدروس: النور السافر ٤٨٨-٤٩٥، ابن العماد: شذرات الذهب ٦٢٠.

التّفريد)[1] وهذه صورة ما قال:

الروح الإنسانية:

واعلم أنّ الله تعالى خَلَق الرُّوح الإنسانيّة من نور ذاته، وأَوْدَعَ فيها بواسطة العَقْل جميع العُلوم الإلهيّة، فهي مجبولة على دَرْكِ الحَقائِق بالفِطْرة أصالةً، وإنّما حَجَبَ النّاسَ عن إدراك ذلك حُكْمُ الجِسم الذي امتَزَجَتْ به الرُّوح فتنزَّلَت وتسفَّلت، فإذا أَخَذَ العَبْدُ في الرِّياضات أخذت الحجب في الارتفاع، لأنه إذا قلّل الطّعام والكلام والمَنام والاختلاط بالأنام سَقَطَ فيه الجِسم عن الرُّوح.

فإذا أضيف إلى ذلك ترك العادات كالجَزَعِ[2] والاسترسال مع الخواطر والتشوّف إلى النّاس فيه والفرح بالحاصل والحزن على الغائب وأمثال ذلك تخلّص الرُّوح من سجن الطّبع وطار في فضاء عالم الأرواح، فإذا أضِيفَ إلى ذلك تَرك القياس بالعَقْل عندَ طَلَب معرفة الأمور ظَهَرَت له الأشياء على ما هي عليه، فلا تحجبها الجُدران ولا يمنعها بُعْدُ المكان والزَّمان، وقد تُرَى الأشياء بالعَيْن الشحميَّة لاتِّحاد نور القَلْب بالعين، فحينئذٍ جاز أن يُسَمَّى قلبه باللَّوح المحفوظ، وأن تُسَمّى روحه بأمّ الكتاب انتهى.

تنبيه آخر يتعلّق بلفظ السر

قال بعضُ أهل المعرفة نَفَعَ الله بهم: وأمَّا لفظ السِّر فهو - والله أعلم - إشارةٌ إلى أمر غير مستقلّ بالماهيّة، فليس ممَّا يكون له حدّ على حدة فلذلك أشار إليه القَوْم إشارة لا تفي بتعريفه، وليس أيضًا وصفًا مخصوصًا بأمر

---

[1] هو شرحه الكبير على قصيدته في العقائد المسماة: (تحفة المريد) وله شرح آخر أصغر منه واسمه سراج التوحيد، انظر: العيدروس: النور السافر ٤٩٢.

[2] قال الرازي في مختار الصحاح في مادة (جزع): الجزع ضد الصبر.

معيَّن، ولذلك وُجِدَ الاختلاف في الإشارة إليه، وهو اختلاف لا يمكن الجمع فيه على تقدير كونه وصفًا لأمر واحد، إذ منهم من جَعَلَهُ فوق القَلْب دون الرُّوح وجَعَلَ ما فَوْقَ الرُّوح الخفي.

ومنهم من جعله بعد الرُّوح - أي فوقه - يعني أنه أَلْطَفُ منه وقالوا في الاستدلال على أنّه فوق الرُّوح السِّر محلّ المشاهدة حتّى إذا فَني صار الخفي، والرُّوح محلّ المحبّة وهي قبل المشاهدة، لأنّ المشاهدة إنّما هي اليقين الحاصل عن غلبة المحبّة، والقلب محلّ المعرفة التي هي من أسباب المحبّة، وإنما كان محلّ المعرفة أنّ له وَجْهًا إلى الرُّوح ووجهًا إلى النَّفْس، وهما - أي الرُّوح والنفس - مُدْرِكَانِ أحدهما للمعقولات وهو الرُّوح، والآخر للمحسوسات وهو النَّفْس.

دليل عدم استقلال السِّر بالماهية:

ويَدُلّ عدم استقلال السِّر بالماهيّة أنّ السِّر على تقدير كونه مستقلًا من الأمور العظيمة فلا بُدَّ من ذكره في الكلام القديم، ولم يذكر فيه إلّا الرُّوح والقلب مع أنه ذَكَرَ ما هو أدنى منه، ويدُلّ على عدم اختصاصه اختلاف أهل الكَشْف اختلافًا لا يمكن الجمع فيه على تقدير كونه مختصًا بأمر واحد مع إنهم هم أهل الكَشْف، والكَشْفُ يَمْتَنِعُ فيه وقوع الخطأ المُطْلَق، ولذلك لم يَرُدُّوا ذوقًا جاء به واحدٌ منهم بالكلية بل يُحْمل عندهم ولو على بُعْدٍ على وَجْهٍ صحيح تَقْبَلُهُ الحَضْرة الإلهية. نعم. من حَصَرَ الأمر في مشربه رُدَّ عليه حصره، وغالبًا لا يفعل ذلك إلّا مَنْ غَلَبَ عليه سُكْرُهُ، وإذا كان كذلك فنقول والله أعلم: الذي سَمُّوه سرًا ليس هو شيء مستقلّ بنفسه، ومعنى المستقلّ: أن يكون له وجود وماهية غير تابعةٍ لأمرٍ آخرٍ، كالرُّوح والنّفس لهم وجود وماهية غير تابعين لأمر آخر.

وإنما السِّر هو القَلْب المتّصف بصفة الرُّوح، والرُّوح المتّصِف بصفة الذّات الإلهيّة، إلّا أنّ هذا الوَصْف لغاية تلطيفه، كأنّه يجعل الموصوف شيئًا آخر حتى اسْتَعْجَمَ على مَن وَجَدوه فتوهَّمُوا أنه قِسْمٌ آخر له وجود وذات مستقلّة، وذلك لأنّه لما صفت الرُّوح عن كدورة الحيوانية، وتَزَكَّتْ عن صفاتها الظلمانيّة، انطلق الرُّوح من وثاق ظُلمة النَّفْس، فأخذ الرُّوح في العروج إلى أوطان القُرْبِ التي تناسبه بأصل الخِلْقةِ، وقد انحبس عنها بوثاق ظُلمة النَّفْس.

وعند ذلك تبع القَلْب الروح فانْتَزَحَ من مستَقَرِّه الذي هو استواء ميله إلى الروح والنفس، متطلّعًا إلى الاتّصاف بصفات الروح من الصَّفاء والتجرُّد الذي يحصل به العُروج إلى مقامات القرب، فاكتسب وصفًا زائدًا في التجرُّد على وصفه الذي كان له فاستعجم على الواجدين بسبب ذلك الوصف الذي لم يكن من شأن القَلْب أن يتّصف به حيث رأوه أصفى من القَلْب فَسَمُّوهُ سِرًا، وهو القَلْب بعينه مع زيادة وصف الصّفاء.

فهكذا لّما صار للقلب وصفًا زائدًا على وصفه بتطلُّعِهِ إلى الروح، اكتسب الروح وصفًا زائدًا في الصَّفاء والتجرّد المعين في عُرُوجِهِ من حيث تخلّص عن ظُلمة تدبير القَلْب العاق بصيرورة القَلْب في هذه الحالة بارًا، فاستُعجم ذلك الوصف على الواجدين أهل الكشف، فسمُّوه أيضًا سِرًا فصار السِّر لفظًا مشتركًا في المعنى الذي زاد فيه وصف الصَّفاء والتجرُّد والعروج.

فلا خلاف بينهم في المعنى إذ يمكن الجمع بينهما في المعنى مع تفرُّقهم في الموصوف، فالذين قالوا: إنّه ألطَف من الروح. المراد: إنّه ألطَف وصفًا

من وصف الروح في متعارف العامّة، فهو روح متَّصِف بوصف أخصّ وألطَف ممَّا عَهِدوه إلّا أنّه شيء غير الروح بالكلية كما تُوهِمُهُ عبارتهم، وهكذا الذي سَمُّوه قبل الروح سِرًّا ليس شيئًا غير القَلْب، بل هو قلب اتَّصَفَ بوصفٍ زائدٍ على ما عهدوه، وهذا التَّرَقِّي لا يختصّ بالقلب والروح، بل في مثل هذا التَّرقِّي منهما تترقَّى النَّفْس إلى محلّ القَلْب، فتتَّصِفُ بصفاته وتنخلعُ من صِفاتها، إلّا أنها لقرب أمرها لا يُستعجم على الواجدين حالُها، فيعرفون أنّها النَّفْس تَبَدَّلَتْ صفاتها بصفات القَلْب.

ومن صفاتها: الطَّمأنينة عند متابعة الروح فتصير نفسًا مطمئنّةً، وعلامة طمأنينتها أنّها آلات تريد كثيرًا من مرادات القَلْب قبل الترقِّي إلى مقام الروح، وإنّما قيّدنا بذلك لأنها لا تقدر أن تريد مرادات القَلْب بعد الترقِّي، إذ صار القَلْب بعد الترقِّي يريد ما يريده مولاه مُتَبرِّئًا عن الحَوْلِ أي التحوُّل عن المعاصي والقوّة على الطّاعات والإرادة بشيءٍ من الأشياء والاختيار لأمر نفسه أو غيره، فإرادته فانية والنَّفْس لا تكون كذلك ما دامت باقيةً.

وإنّما قيّدنا بالكثير لأنّ النَّفْس تريد حقوقها من الشَّهَوات الضَّروريّة، ولا يريد القَلْب ذلك بالذّات، بل بالرِّفق للنَّفْس المُنْقادة له وإلّا فالقَلْبُ قد فني عن إرادته بالكُلِّيّة وبَقِيَ بالحَقّ فقد ذاق طعم العبوديّة بالكُلِّيّة، وتخلَّصَت عبوديَّتِه للحَقّ، حيث صار حُرًّا عن رِقِّيّة إرادته واختياره، وكان للنَّفْس مشاركة معه في عبوديَّتِه كما ذكرنا. انتهى.

قلتُ: ويمكن أن يُحْمَلَ أيضًا على ما ذُكِرَ هنا من جملة السِّر لفظ الخفي ولفظ الإخفاء المذكورين في كلام بعض الصُّوفيّة نَفَعَ الله بهم، والله

أعلم بحقائق الأمور، ومِنْ ثَمَّ قالوا: الخلاف لفظي اعتباري في قول الإمام الغزالي نَفَعَ الله به. إنّ الصِّدِّيقيّة تحت النُّبوَّة من غير واسطة، وقول الإمام محيي الدين بن العربي نَفَعَ الله به[1]: القُرْبَةُ فوق الصِّدِّيقيّة وتَحْتَ النُّبوَّة وذلك أن القُرْبة رُتْبَةَ من مَرَاتِب الصِّدِّيقيّة، وهي أعلاها كالوسيلة في الجَنَّة مثلًا أعلى الجَنَّة.

وإلى ذلك أشار شَيْخُنا العلّامة الشَّريف الأستاذ القُطْبُ عبد الله بن جعفر مدهر علوي[2] نفع الله به في قوله في حَقّ العيدروس:

قُطْبُ الجَمال مَليك المَجْدِ زاهِرُه   المُعْتَـلِي في مقـام القُـرْب أعلاه

السالكون أربعة أقسام:

وأمّا قوله في النّظم (يا سالك): أي سالك في طريق أهل الحَقّ، **والسَّالِكون على أربعة أقسام:**

- سالك مجرَّد لم يَنْتَهِ إلى الأحوال لتمكّن النقصان في أعماله بحيث لا تصير سببًا لاشتمال الأحوال.
- ومجذوبٌ أبتر لم يرد إلى الأعمال.
- وسالكٌ متدارك بالجذبة رُدَّ إلى الأحوال.
- ومجذوبٌ متدارك بالسُّلوك رُدَّ إلى الأعمال.

---

(١) ابن عربي: الفتوحات المكية ٢: ٤١.

(٢) هو السيد الإمام عبد الله بن جعفر بن علوي مدهر، مولده بمدينة الشحر سنة ١٠٩٣هـ، وسافر إلى الحجاز والهند، وأقام بالهند نحو عشرين عامًا، ثم عاد إلى الحجاز فأقام بمكة حتى وفاته سنة ١١٦٠هـ، وترك عدة مؤلفات منها: «كشف أسرار علوم المقربين»، و«اللآلئ الجوهرية على العقائد البنوفرية». الجبرتي: عجائب الآثار ١: ١٦٩، الباباني: هدية العارفين ١: ٤٨٢.

وإلى هذين الأخيرين الإشارة بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]. أي الله يختصّ باجتبائه من يَشَاء من عَبِيده - من غير سبق اجتهاد منه بل بمحض مشيئته الأزليّة المتعلِّقة بكمال استعداد عينه الثّابتة - الموجب كمال اعتدال مزاجه، بحيث تغلب فيه أحكام الوحدة على أحكام الكثرة، وأحكام الوُجوب على أحكام الإمكان فَيَقْرُبُ من الحَقّ وينجَذِب إليه بالمَحَبَّة الأصليَّة.

وقوله: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ أي ويختصّ بتيسير طريق الوُصول إليه من ينيب بوفاء عَهْد التَّوْبة لقصر استعداد عينه الثَّابتة من غير انضمام مقدِّمة الإنابة إليه، فإذا تمَّت الإنابة تَيَسَّرَ بفضل الله تعالى الطريق إليه، وإلّا فمجرّد العمل لا يوجب الوصول، وتلك المجاهدة وإن كانت أيضًا نوع جَذْبٍ من الله تعالى، لكنه لما كان ثقيلًا عليهم لمكان نفوسهم وهم قد جاهدوها بتلك المُجاهدة صارت أسبابًا منسوبة إليهم تترتّب عليها الأحوال الفائضة عليهم، إذ جعل الله سبحانه وتعالى هدايتهم في لوح القدر مربوطة بالإنابة استهداه أعيانهم الثّابتة في قبولها بدون الإنابة التي هي الرّجوع إلى الحَقّ كما ذكرنا بوفاء عَهْد التَّوْبة، والهِدايَة العامَّة في الآية هي الهِدَاية لطَلَب الله والهِدَاية الخاصّة التي في الآية هي الهِدَاية إلى الله أي إلى الكَشْف بأنوار صفائه وأسمائه وذاته.

فأهل القسم الرابع: خُصُّوا بالاجتباء الصَّرف وهو التقرُّب من غير كَسْبٍ سابق.

وأهل القسم الثالث: خُصُّوا بالهِدَاية بشرط تقديم الإنابة التي هي كَسْبٌ سابق مُثْمِرٌ لأحوالهم ومقاماتهم، وهي وإن كانت بمحض فضل الله

تعالى لكنها أفادت كمال الاستعداد المستفيض ذلك الفضل من الله بحصول التزكية.

وأمّا الاجتباء المحض فهو غير مُعَلّل بِكَسْبِ العبد، لأنّ الكَسْب متأخِّر عنه والمتأخِّر لا يصلح عِلَّةً للمتقدِّم، واستعداد عينه الثّابتة واعتدال مزاجه لَيْسَا من كَسْبِه، وهذا هو حال أهل القسم الرَّابع.

من لا يصلح للمشيخة من السالكين ومن يصلح لها:

والقسمان الأوّلان: لا يصلُحان للمَشْيَخة بل يُتَبَرَّكُ بهما ويُلْتَمَسُ دعاؤهما، لأنّ السَّالك المجرَّد عن الأحوال لا يؤهَّل للمَشْيَخة ولا يَبْلُغها أصلًا لبقاء صفات نفسه عليه، فليس بصاحبِ حال، فكيف يُسْتَفاد منه الأحوال؟!

بل هو واقف عند حَظِّه من رحمة الله وتوفيقه للأعمال الصَّالحة في مقام المعاملة والرِّياضة، ولا يرتقي عن مرتبته إلى حال يروح بها عن وَهَجِ المكابدة، فلا يتمّ أمر محبّته، وذلك بحيث التَذَّ بمحبوبه فتقرَّب منه حتى تقرَّب به إليه.

وكذا المجذوب المجرَّد عن الأعمال: وهو الذي من غير سلوك ومجاهدة ببادية الحَقّ بآيات اليقين، ويرفع عن قلبه شيئًا من الحِجَاب الظُّلماني بحيث يلتَذّ بمحبوبه، فهو وإن كان كاملًا من وجه لا يصلح للتكميل إذ لا يؤخذ في طريق المعاملة، وللمعاملة أثرٌ تامٌ في التقريب، وهو قد قصر كماله حيث وقف عند حَظِّه من القُرب إلى الله تعالى مُرَوِّحًا بحاله غير مأخوذ في طريق أعماله غير الفريضة.

وأما الذي يصلح للمَشْيَخة فهما القِسْمان الأخيران، والأوَّل منهما: وهو السَّالك الذي تُدُورِكَ بالجذبة، وهو المحب أوّلًا المحبوب آخرًا، فكونه مُحِبًا من حيث أنه كانت بدايته المجاهدة والمكابدة في مباشرة جوارحه الأعمال والمعاملة بالإخلاص والوفاء بشروطها، بحسب المساعي القلبيّة، فيسري النُّور من الظَّاهر إلى باطنه فيصير محبوبًا، فتتمّ محبّته ولذّته فيخرج من وهج المكابدة بالأعمال إلى روح الحال، فحينئذٍ وَجَدَ العَسَل بَعْد العَلْقَم، وتروَّح بِنَسَمات الفَضْل بانكِشاف غَمام صِفَات النَّفْس عنه، وبَرَزَ بذلك من ضِيقِ المُكابَدة إلى مُتَّسَعِ المُسَاهَلة الحاصِلة لرُوحِه من قَطْع دواعي النَّفْس إلى السفْلِ، وتأَنَّسَ بِنَفَحَاتِ القُرْبِ حتى نَسِيَ اللَّذّات الفانِيَة الخَسِيسَة، وفُتِحَ لَهُ باب من المُشَاهَدة التي هي أعظم لَذّةٍ من اللَّذّات الخَسِيسَة بمراتِب، فَوَجَدَ دواءَهُ عن مرض الميل إلى السّفل، فكَمُل نور باطنه حتى فاض وعاؤه الباطن إلى ظاهره فتنوَّر ظاهره بنور باطنه وصدرت منه كلمات الحكمة الصادرة عن كمال نور الباطن حتى تنوّرت قلوبَ السَّامعين فمالتْ إليه قلوبهم، ثم تُوَالى عليه فتوحُ الغَيْب. أنوارًا بعد أنوار، وصار ظاهره مُسَدَّدًا بالأعمال، وصار باطِنُهُ مُشَاهِدًا للجمال والجلال.

وحينئذٍ صَلُحَ للجلوة لأنه لا يحتجب بشيءٍ عن شيء حتى إنّه صار له في جلوته معاني الخلوة، لأنّه صار بحيث يَغْلِبُ ويؤثّر في كلّ شيء، ولا يؤثّر فيه شيء ممّا يراه ويسمعه. كيف لا وهو يفترس النّاقصين من حضيضهم إلى مرتبة الكمال؟ ولا تفترسه نفسه ولا شيطان ولا غيرهما من أرباب الضَّلال لتَمَكُّنِهِ في الأعمال والأحوال فهو من الرِّجال القَوَّامين على نِسَاء نفوسهم ونساء نفوس غيرهم، ومثل هذا الكامل يؤهَّل للمَشْيَخة، لأنّه يُكمِّلُ النّاقصين بالأعمال التي أَخَذَ بها أوّلًا إن كان في طريق المحبّين،

ويكمِّل بإفاضة الأحوال إذ قد مُنِحَ حالًا من أحوال المقرَّبين بعد ما دَخَل من طريق أعمال الأبرار الصَّالِحِين، وتلك الحال مستقرَّةٌ غير منقطعةٌ، إذ حَصَلَت له بَعْدَ المُجاهَدة الموعود عليها الهِدَاية، قال الله تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وحيث صار هاديًا مهديًّا مستقرًّا في هِدايَتِه صَلُحَ عن أن يكون له أتباعٌ في الهِدَاية تُنقَلُ منه إليهم علومٌ وأحوالٌ، وأن تَظْهَرَ بطريق بَرَكَةِ النَّصيحَة العامَّة أيضًا.

المقام الأكمل في المشيخة:

لكن هذا الرَّجُل مع هذا الكَمال قد يكونُ فيه قُصُور، إذ قد يكون محبوسًا في حاله لوجدانه إياه بعد التعقُّب، فيكون حاله مُحكَّما فيه فَيَقِف عندَه ولا يطلب الزِّيادة، ولا يُطْلَقُ من وثاق الحال إلى ما فوقه، ولا يبلغ كمال النّوال بطلب الزِّيادة بل يقف عند حَظّه، وهو وإن كان حظًّا وافرًا سنيًا فهو قصور، إذ درجات أهل العلم بالله لا تنتهي. وحينئذٍ فالمقام الأكمل في المَشْيَخة هو القِسم الرَّابع: وهو المجذوب، أي المحبوب أوّلًا المُتَدارك بعد الجذبة بالسُّلوك فيصير محبًا ثانيًا طالبًا للزِّيادة غير واقِفٍ عندَ الحال، ومعنى جَذبِهِ أوّلًا: أن يبادئه الحَقّ قَبْلَ معامَلتِه بالكُشُوف التي هي أنوار اليَقِين، وذلك بأن يَرْفَعَ عن قلبه الحُجُبَ الظُّلمانيّة، وإذا ارتَفَعَت يستنير بأنوار المُشَاهَدة لصفائه مع عدم الحِجَاب بين الحَقّ وبينه.

فإذا تجَلَّى الحَقّ عليه انشرح - أي قلبه - بصيرورته مرآةٌ له وينفسح حينئذٍ قلبه[1] فيَتَّسِع لما لا يَتَناهَى اتِّساع المرآة الصَّغيرة لمثل السَّماوات والأرضين

---

[1] يشير إلى الحديث الذي رواه البيهقي في شعب الإيمان (٧: ٣٥٢) والحاكم في المستدرك (٤: ٣٤٦) عن ابن مسعود قال: تلا رسول الله ﷺ: «فمن يُرِد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام» فقال رسول الله ﷺ: «إنّ النّور إذا دخل الصّدر انفسح». فقيل: يا رسول الله: هل لذلك من عِلْمٍ يُعرف؟ قال: «نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخُلود، والاستعداد للموت قبل نزوله»، لكن طعن الذهبي في إسناده .

مع صِغَر جرمَها، وإذا صار مجليٌّ للحَقّ يتجافى عن دار الغرور لظهور ما فيها من التغيير، وينيب إلى دار الخلود لاجتلاء ما فيها من اللَّذّات الباقية، بل يرتوي حينئذٍ من بَحْرِ الوِصال الذي لا اعتبار فيه لماضٍ ولا استقبال، ويتخلَّصُ من الأغْلال التي هي علائق الدُّنيا والأغْلال التي فيها الالتفات إلى ما سِوَى المولى بغاية تحقُّقِهِ بالْمُشَاهَدة حتى يقول: لم أعبد رَبًّا لم أرَه – أي بعَيْن اليَقِين– وإذا ارتَوى من بَحْر الوِصال رُدَّ إلى الأعمال حتى يُجْعَل مُحِبًّا ثانيًا فيفيض من باطنه على ظاهره بتنويره إيّاه كتنوير المرآة المنوَّرة بنور الشَّمس ما يقابلها من جدارٍ ونحوه.

وإذا تَنَوَّرَ الظّاهر تجري عليه صورة المجاهدة من الأعمال الصَّالحة من غير أن ينسبَهَا إلى نفسه، ويَعدُّها من أعماله لِفَنَاءِ النَّفْس والأعمال عنده بمكاشفة وِحْدَةِ الأفعال والصِّفات والذّات، بل يكون عاملًا بالله ويجريها الله عليه تكميلًا له، فلذلك تكون من غير مُكَابَدة وعَنَاء كما هو شَأن الأفعال الإلهيّة المنسوبَة إلى الله خاصّة، بل بلذاذة وهناء من حيث تزداد بها أنواره وتُقَرِّبُهُ إلى الله تعالى، فيتلذّذ بذلك إذا وَجَدَ قُرَّةَ عينِه، كما يشير إليه: «وَجُعِلَتْ قُرةَ عَيْنِي فِي الصَّلاة»[1].. بل يتلذّذ باللَّذّات الحِسِّيّة أيضًا لأنّه يصير قالبه بِصِفَةِ قَلْبِه في النوريّة لأنّ قَلْبَه لَمَّا امتلأ بِحُبّ رَبِّه أفَاضَ من حُبِّه على قالبه الذي بينه وبينه علاقةٌ تامَّةٌ، وإذا أفاضَ عليه من حُبِّهِ صار مُنَوَّرًا بنورِه، فَتَذْهَب تُرَابِيَّتُه الْمُوجِبة صُعُوبة الأعمال التي منها الْمُكابَدة والعَنَاء، فَيَلِين جِلده كما لانَ قَلْبَه بذهابِ أثر النَّفْس الجَامِدة الترابيّة.

---

[1] رواه أحمد (٣: ٢٨٥)، وأبو يعلى (٦: ٢٣٧) في مسنديهما، وهو حديث حسن.

وعَلامَة لِين جِلْدِه – أي ظاهِرِه – إجابة قالِبِه للعمل، فإنّ خاصِّيّة الرَّطِبِ سهولة التّشَكُّل بما أريد له من الأشكال، فذلك كما لانَ قَلْبَه بإجابتِه للأخلاق الصَّالِحَة التي أريدَت منه بأن يتشكَّل بها، وهذا من جِهَة كَوْنِه مُحِبًّا بعد محبوبيَّتِه، وحينئذٍ يريده الله تعالى إرادةً خاصّةً بعد ما كان مُرادًا له بالكُشُوف التي حَصَلتْ للقسم الثّالث.

وذلك بأن يَخُصهُ بكُشُوف أخرى غيرها ويرزقه محبّةً خاصةً من محبّة المحبوبين، والثّالث وإن أُعْطِيَ محبّة المحبوبين فليست خاصّة، ومِنْ أسرار تلك المَحَبَّة الخاصّة أنّ المَحبوب بتلك المَحبَّة ينقطع فيواصل، وذلك أنّه قد يُعْرِضُ إعراضًا يُوجِب الانقطاع فيراسَل إرسالًا بالمُواصَلة، وسبب جريانه إرسال صورة المُجَاهَدة عليه هو أن يَذْهَب عند جمود النَّفْس الذي به تستثقل الأعمال، وذهاب جمودها هو بلينها للعبادة باصطلائها[1] بوصول حرارة القَلْب إليها كما لانَ القَلْب بوصول حرارة الرُّوح إليه، والنَّفْس تفيض بعد ذلك على البَدَن فَيَلِين الجِلْد الظَّاهِر وتَسْهُل عليه الطَّاعة من غير كُلْفَة، وحينئذٍ تنقطع عن القَلْب بسبب امتلائه بِحُبّ رَبِّه عُروق النَّفْس المنازِعَة، قال الله تعالى: ﴿**ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ**﴾ [الزمر: ٢٣].

أخبر أنّ الجُلُود تَلِينُ كما أنّ القُلُوب تَلِين، ولا يكون لِين الجُلُود مع لِين القُلُوب إلّا حال المَحْبُوب المُراد، وإلّا فالمُحِبّ لا تزال نفسه جامِدةٌ يجذِب إليها الكَدّ في العِبَادات، والدَّليل على انكماش عُرُوق النَّفْس عن

---

[1] الاصطلاءُ: الاستدفاء بالنار.

القَلْب المُوجِب لِلِيْنِهِ أنّه وَرَدَ في الخَبَر: (أنّ إبليس لَعَنَه الله سأل السَّبِيل إلى القَلْب، فقيل له: يَحْرُمُ عليك. ولكن السَّبِيل لك في مَجَاري العُرُوق المشتَبِكَة إلى النَّفْس إلى حَدِّ القَلْب، فإذا دَخَلْتَ العُرُوق عرقت فِيهَا مِنْ ضِيقِ مَجَارِيها وامْتَزَجَ عَرَقُكَ بماء الرَّحْمة المُتَرَشِّح من جانب القَلْب في مَجْرَى واحد، ويَصِل بذلك سُلطانُك إلى القَلْب؛ وَمَنْ جعلتُه نبيًّا أو وليًّا قلعت تلك العُرُوق من باطن قَلْبِه فَيَصِيرُ القَلْب سَلِيمًا، فإذا دخَلتَ العُرُوق لم تَصِلْ إلى المُشْتَبِكة بالقَلْب فَلا يَصِل إلى القَلْب سُلطانُك)[1] انتهى.

قال بعض من كَتَبَ تحت هذا الخَبَر رحمه الله تعالى: أي أنّ إبليسَ سأل التصرُّفَ في النَّفْس النّاطِقَة التي هي القَلْب لِيُضِلَّهُ بنفسه بلا واسطة فَمُنِعَ عن ذلك لكن جعل القَلْب مع النَّفْس الأمَّارة بالسُّوء التي هي الرُّوح الحيواني عُروقًا من العلائق، وجعل لإبليس مُدْخَلًا في تلك العُرُوق من حيث يَجُرُّ القَلْب إلى شَهَوات النَّفْس.

وقيل له: إذا دخَلْتَ العُرُوقَ غَرِقْتَ فيها ـ أي اختفى كلامك ـ مثل كلام الغريق، وذلك لضيق مجاريها فلا يَرَى القَلْب أنّ ذلك كلامك إذ لا يَرَاك، وإذا غَرِقْتَ فيها غَرِقْتَ أيْ ظَهَر رَشحُ وِسواسِك فامتَزَج عَرَقكَ بماء الرَّحمة وهي الفَيْضُ القَلْبيُّ النّاشئُ من مَحَبَّة القَلْب للنَّفْس، فَيَلْتَبِس على القَلْب كلامُكَ بكلام النَّفْس، ويَصِل بذلك سُلطانُك إلى القَلْب بواسطة عَوْدِ شيء من النَّفْس إلى القَلْب.

ثُمَّ قال له عَزَّ وجَلَّ: ومن جعلتُه نَبِيًّا أو وَلِيًّا قَلَعْتُ تلك العُرُوق من باطِنِ قَلْبِه بحيث ينقطع عنه المَيْلُ إلى النَّفْس إلّا مِنْ جِهَة الفَيْض الذي به

---

[1] ليس هذا بحديث، ولم نقف عليه.

قوامُهَا فَتَبْقَى تلك العُروقُ مِنْ جِهَة ظُهُور فَيْض القَلْب عليها ولا تبقى جِهَة انعكاس آثار النَّفْس إليه، وهي جِهَة الظَّاهِر عَوْد إلى الباطن لانقلاعِها من تلك الجِهَة.

وذلك لصيرورة نفسه مطمئنّة غير أمَّارة، فَلا ينتقِل منها إليه إلّا مِثْل ما فاضَ عليها منه، فيصيرُ القَلْب حينئذٍ سَليمًا من كَدُورَاتِ النَّفْس، فإذا دَخَلْتَ العُرُوق غَرِقْتَ وَغَرِقَ كَلامُكَ فلا تَصِل المُشْتَبِكة بالقَلْب من النَّفْس لانقلاعِها وعَدَم بقائها من تلك الجِهة فلا يَصِل إلى القَلْب سُلطانُك، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الإسراء: ٦٥]. انتهى. والله أعلم بحقائق الأمور.

حال المحبوب المراد:

وبالجُمْلة فالمَحْبُوب المُراد سواء كان محبًّا أوّلًا متداركًا آخرًا بالجذبة أو مَحْبُوبًا أوّلًا متداركًا آخرًا بعد الجذبة بالسُّلوك سَلِمَ قَلْبُه من هذه العُرُوق المُشْتَبِكة، وانْشَرَحَ صَدْرُه الذي هُوَ مَحَلّ نفسه لخُلُوِّه عن هذه العُرُوق الجاذِبَة إلى مَضِيق التعلُّقِ بعالم الحِسِّ ولانَ جِلْدُه فَصَارَ قَلْبُه يُطِيعُ الرُّوح لاتّحاد وَجْهِه مَعَه في الصُّعُود إلى العالَم العُلوي.

وإن كان القَلْب مُفِيضًا من أحد وَجْهَيْه إلى النَّفْس ما يستفيضه من ذلك، فإنّ ذلك لا يمنعه عن صُعُودِه، وصارت نفسه الأمَّارة تطيع القَلْب إذا تخلَّصَت عن صِفاته الأمّاريَّة بالنُّور الفائِض على النَّهْج الخَالِص من القَلْب السَّلِيم، ولَانَتْ النَّفْس بالنُّور الفائض من القَلْب بعد أن كانت جامدةً مائلة إلى السُّفليَّاتِ، أمّارةً بالسُّوء مُستَصْعِبةً في الصُّعُود إلى الجَانِب العُلوي، ولَانَ الجِلْدُ بحيث يسهل عليه قبول التّشَكُّل بالعِبادات للين

النَّفْس المُسْتَفِيضَة على الظَّاهِر، ورُدَّ إلى صُوَر الأعمال بعد وِجْدان الحال التي فيها كَمَاله، ثُمّ لا تزال روحُه تنجَذِبُ إلى الحَضْرَة الإلهيّة بتَبَدُّلِ الأحوالِ والمَقَامات عليه، كلّ حالٍ ومقامٍ أصفى ممّا قبله، فيستتبع الرُّوح في ترقياته القَلْب بغَلَبَةِ سُلطان الرُّوح عليه عندَ كَمال تمكُّنِه لأنّه وزيره.

ويَسْتَتْبِعُ القَلْب النَّفْس التي هي عاملة، وتَسْتَتْبِع النَّفْس القَلْب الشَّامِل على رعيّة الأعضاء، وحينئذٍ امتَزَجَت الأعمال القَلْبِيَّة من المَلَكات الفاضِلة والأعمال الغالبيّة من العِبادات الخالصة، وانخَرَقَ الظَّاهِرُ إلى البَاطِنِ بزيادَةِ تنوير الظَّاهِر بعبادَاتِه للبَاطِن، والبَاطِنُ إلى الظَّاهِرِ بِتَلْيينِه للعِبادات وانخَرَقَت القُدْرَةُ - أي عالم الحقيقة الباطِنة - إلى عالَم الحكمة الظّاهِرة، فعمِلت القُدرةُ إلى ما هو مقتضى الحكمة الظّاهرة وبالعكس، وصارت حظوظ دنياه من اللّذّات الحِسِّيّة إلى لَذَّة الآخرة من المعرفة التّامَّة والآخِرة إلى الدُّنيا بالاستغراق في المَحَبَّة الإلهيّة.

ثُمّ تنكشِف له الحقائق حينئذٍ أتم كَشْف بحيث يَصِحّ أن يقول ما قاله عليٌّ كَرَّمَ الله وجْهَه: لَو كُشِفَ الغِطاءُ ما ازدَدْتُ يَقِينًا. أيْ بَلْ رُبَّما ازدَدْتُ وُضُوحًا، فإذا تَمّ له الكَشْفُ أُطْلِقَ مِنْ وِثاقِ الحَال، فلا يتقيَّد بحال بل يكون مُسَلَّطًا على الحال ولا عكس، فيَصِير حُرًّا من كلّ وجه.

تفصيل أحوال السالك:

والشّيخ الأوّل المذكور في القسم الثّالث وهو الذي أخذ في طريق المُحِبِّين أوّلًا ثُمّ صار محَبُوبًا آخرًا حرًا من رِقِّ النَّفْس إذ فَنِيَت عنه حتى وَقَعَ في الأحوال، ولكن ربَّما كان باقيًا في رِقِّ القَلْب حيث غَلَبَ عليه الحَال.

وإنّما قلنا: ربّما، لأنّه يلحق بالقسم الرَّابع في عدم غَلَبَة الحال عليه، بل يَصْير هو غالبًا عليه، وهذا الذي هو مأخوذ في طريق المحبّين أوّلًا، ثُمّ

رُدَّ إلى وصول الأعمال حُرًّا من رِقّ القَلْب فلا يحجبه الحَقّ عن الخَلْق ولا الخَلْق عن الحَقّ. وذلك لأنّ النَّفْس حِجَابٌ ظُلْمَانِي يحجب عن الحَقّ بالخَلْق أُعْتِقَ منه الشّيخ أوّلًا المُحِبُّ أوّلًا المغلوب عليه بالحال آخرًا، والقَلْب حِجَاب نوراني يحجب عن الخَلْق بالحَقّ لاقتصار نظره على الوجود العلوي، وقد أُعْتِقَ منه الشيخ الثّاني، فلا يحجبه شيءٌ عن شيءٍ، فلا يغلب عليه الحال فضلًا عن النَّفْس. وإذا أُعتِقَ عَنِ القَلْب والحال صار لِرَبِّه خالصًا، وإذا صَارَ له من غير تقييد بشيء عَبَدَ الله حقًا يقينًا وآمَنَ به صدقًا من غير حِجَاب، فيُكَمَّلُ في ذلك حتى يستتبع أعضاؤه وقُواه. وحينئذٍ يَسْجُد لله سواده الذي هو جِسْمه وخياله الذي هو نفسه وباقي المَعاني الباطنة بالعبادات الظّاهرة والمَساعي البَاطنة، وحينئذٍ يؤمن بالله فؤاده إيمان اعتقاد عن المُشاهدة والمُعاينة ويُقِرُّ بذلك الاعتقاد لسانه كما قال رسول الله ﷺ في بعض سُجُودِه: «سَجَدَ لك سوادي وخَيالي، وآمَنَ بِكَ فُؤادي وأَقَرَّ لَكَ لِسَاني، وهَا أنا ذا بَيْنَ يَدَيْكَ يا غَافِرَ الذَّنْبِ العَظِيم»[1]. بل لا يتخلَّف عن العبوديّة منه مقدار شَعرة من باطِنِه وظاهِره لغَلَبة النّورانيَّة عليهما حتى تصيرَ عبادتُه مشاكلة لعبادة الملائكة، فتصير بمحض اللّذَّة وتَعُمُّ جميع أجزائه ﴿**وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ**﴾ [الرعد: ١٥]، أي ولله يَسْجُدُ مَن في السَّماوات من الأرواح والقلوب وجنودُهما والأرض من النّفوس وقواها طوْعًا من القلوب والأرواح، وكَرْهًا من النّفوس، لكن السّجود على وفاق طبع الأوّلين دون النَّفْس وإن صارت بالعَرَضِ مطمئنّة.

---

[1] رواه البزار في مسنده بسند جيد كما قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (٢: ١٥٢)، وهو في البحر الزخار للبزار الحديث رقم (٢٠٤٣)، ورواه أبو يعلى في مسنده (٤: ١٧٧).

وظلالهم وهي الأجسام بغُدُوّ الظُّهُور بالجمال وأوصاف الظُّهُور بالجلال، وإنّما سَجَدَت القوالبُ بسُجُود الأرواح، لأنّه لا فعل للظلّ بدون فعل الشّخص، وفي عالم الشَّهادة الأصل الذي هو الظِّلّ كثيفٌ وظِلُّه لطيفٌ، وفي عالَم الغَيْب بالعكس من ذلك، الأصل لطيفٌ والظِّلّ كثيفٌ، وذلك لأنّ الظِّلّ في عالم الشّهادة هو عدم تَنَوُّرِ المحل، والعدم في عدم ظهوره يناسب الأنوار اللطيفة، والظِّلّ في عالَم الغيب هو تنوّر المحل بنور الظِّلّ لإظهاره، والظُّهُور يناسب الأمور اللطيفة، والظِّلّ ذي الظِّل لإظهاره، والظُّهُور يناسب الأمور الكثيفة فيسجد لطيف العبد الذي هو روحه وقلبه ونفسه، وكثيفه الذي هو جسمه بحيث لا يتخلّف منه شيء عن العبادة أصلًا.

وليس هذا الكَمال لمن أَخَذَ في طريق المُحِبِّين بأن كان سالكًا فَتُدُورِكَ بالجذبة فتقيَّد بالحال وغَلَبَ عليه الحال لأنه يستبشع صور الأعمال، إذ يراها شاغلةً عن الحال، ويرى الاستغناء عنها بحيث يمتلأ بها أنيل من وجدان الحال، فلا يعمل ما وراء الفرائض والرواتب التي لا يستغنى عنها لما أنَّ تَرْكَها يوجب تعطيل الظَّاهِر وإظلامه فيخاف منه سريان الظُّلمة إلى الباطن حتى يطفى عنه نور الحال، وتَرْكُهُ لنوافل الأعمال قُصُورٌ منه في العِلم بحقائق الأعمال وآثارِها في تكميل الأحوال وقلّةِ الحَظّ من الأحوال أيضًا ولو كَثُرَ علمه بالحقائق لرأى الأحوال كالأرواح والأعمال كالقوالب، ورأى ارتباط الأعمال بالأحوال كارتباط الرُّوح بالجسد.

فإن اكتساب الرُّوح لكمالاته يتوقّف على هذا الجَسَد، فإذا انتهى تَعَلُّقُهُ عن الجَسَد فلا يمكنه اكتساب كمال بعده، فيحصل الوقوف فيما هو

فيه، ولو كَثُرَ علمه بالحقائق لرأى أن لا غِنَى عن الأعمال لتكميل الأحوال، بل لحفظها وعدم الرَّدّ إلى السّفل بالكليّة، كما لا غِنَى في عالَم الشَّهادة عن القوالب لاكتساب كمالات من هذا العِلم تنفعه إلى الأبد.

فما دامت القوالبُ باقيةً فالعمل باق وإلّا كان مُخِلًا بفوائد تعلُّق الرُّوح بالجسد بالكليَّة، وذلك عين القصور، والكامل لا يَحْتَجِبُ عن شيء وَيَسْتَلِذّ بالأعمال إذ تتمُّ له الأحوال بذلك، بل الأحوال إنّما تكون بقدر الاستعداد، والاستعداد إنّما يَتِمُّ بالأعمال فيكون قاصر الاستعداد، بل موطنُ الأحوال هو الآخرة، وموطِن الأعمال هو الدُّنيا.

والأعمال شَجَرة والأحوال ثَمَرة، ولا ثمرة بدون الشَّجَرة، فإن كانت فلا تبقى.

الشيخ المطلق:

وبالجُمْلة فَصَاحِبُ القِسم الثَّالث شيخ من وجه دون وجه، وأمّا من صَحّ بالمَقام الذي ذكرناه: وهو صاحب القِسم الرَّابع وكذلك صاحب القِسم الثَّالث، إذا صار كذلك بأن أُطْلِقَ من وثاق الحال وَرُدَّ إلى صورة الأعمال، ولم يقف روحه في مقامٍ أو حالٍ إلى غير ذلك ممّا تقدَّمَ ذِكْرُه، فهو الشّيخ المُطْلَق لأنّه في مقامِ البقاء صالح للتّكميل، وهو العَارِف المحقِّقُ الذي كَمُلَتْ معرفته بالحقائق بحيث لا يحتجب بشيءٍ عن شيءٍ، وهو المحبوب المعتوق مِن رقِّ نفسه وَرِقِّ قلبه.

وإنّما كان شيخًا مطلقًا لأنّ نظره دواء، لأنّ من لم ينفعك لَحْظُهُ لم ينفعك لَفْظُه، وكلامه دواء وذلك لأنّه في مقام البقاء، بالله ينطق وبالله يسكت، وهكذا بالله ينظر وبالله يسمع كما ورد في الخبر: «لا يزال العبد

يتقرّب إليَّ بالنَّوافل حتّى أحبّه، فإذا أحبَبْته كنت له سَمْعًا وبَصَرًا ويدًا وفؤادًا ومؤيّدًا، بي ينطق وبي يبصر... الحديث»[1].

وهذا لا يوجد في المُحِبّ لأنّه إذا غَلَبَ عليه الحَال لا يَرى ما سِوَى الحَقّ أصْلًا، بل يكون محجوبًا بالحَقّ عن الخَلْق، فكيف يَرى هذه الأشياء؟ بِخِلاف المَحْبوب المَذْكُور فإنّه لا يحجبه الحَقّ عن الخَلْق ولا الخَلْق عن الحَقّ، فَيُعْطي بالله مَا يُعْطِي ويَمْنَعُ بالله ما يَمْنَع من غير عوَضٍ ولا غَرَضٍ، إذ لا رغبة له في عطاءٍ ولا منع يعينه، بل هو مراد الحَقّ في ذلك.

والحَقّ يُعَرِّفُه مرادَه بإشارةٍ لطيفةٍ وإلهامات صادقة مُجَرَّبة، فيكون في الأشياء بِمُراد الله تعالى لا بِمُراد نفسه، فيعمل بالله ويترك العمل بالله أيضًا، فإن عَلِمَ أنّ الله يريد منه الدّخول في صورة مَحْمُودة من الأعمال دَخَلَ فيها بِمُراد الله لا لكَوْن الصُّورة محمودة.

صورة المشيخة الكاملة:

وهكذا صورة المَشْيَخة والتَّكْميل إنّما يدخل فيها بمراد الله لا بمراد نفسه، إذا علمتَ ذلك أيُّها الطَّالب الرَّاغب فاعلم أنّه لـمَّا كانت الجذبة نادرة جدًا احتاج الطَّالب الرَّاغب في هذا الخبر العظيم إلى ملازمة المُرْشِد الكامل المُكَمَّلِ. ومن ثَمَّ قال أبو يزيد[2] قُدِّسَ سِرُّهُ: مَن لَـمْ يَكُنْ لهُ أستاذًا فإمامه الشَّيْطان.

---

[1] رواه البخاري (٦٥٠٢) والحديث هنا مروي بالمعنى، والحديث تكلموا فيه كما في فتح الباري (١١: ٣٤١).

[2] أبو يزيد البسطامي: طيفور بن عيسى البسطامي، الزاهد المشهور، ولد في بسطام (بلدة بين خراسان والعراق) سنة ١٨٨هـ، ووفاته فيها سنة ٢٦١هـ. الشعراني: الطبقات الكبرى ١: ٧٦ – ٧٧، الزركلي: الأعلام ٣: ٢٣٥.

وهذا الكلام منه جَرْيًا على الأغلب كما ذكرنا أنّ الجذبة نادرة جدًا، وإلّا فيجوز أن يَجْذِبَ الله تعالى شخصًا ويَرفَعُ عنه هَواه فلا يكون للشَّيْطان عليه سبيل، لكنّه نادر الوُقوع، والنّادر في حكم العَدَم، ومع ذلك فقد مَثَّلَ الدقاقُ[1] قُدِّسَ سِرُّه بالشَّجَرة النَّامِيَة بنفسها من غير غارِس من حيث إنّه استقلّ بعقله في دَفع هواه لتحصل له التّصفية المثمرة للتجليات الغيبيّة.

ضرورة صحبة المشايخ:

وقَلَّمَا تحصل هذه الثَّمَرة من غير شيخ، كما أنّ تلك الشَّجَرة لا تثمر غالبًا، ويجوز أن يحصل له التجلّي العيني، كما لا يجوز أن تثمر الشَّجَرة، إلّا أنّه ليس لفاكهتها طعمُ فاكهة البساتين، فكذا لا يكون لتجلِّيهِ ذاك الكمال، إذ قَلّما يستقلّ بمعالجة دقائق أمر من أمور الهَوى الخفيّة بنفسه من غير تعليم طريق الأدوية.

وذلك لأنّ تصرُّفَ العَارِف بأيّ شيء كانت معرفته أثرًا فيها يتصرَّفُ فيه، ولهذا يكمل طعم الثَّمَرة وعدد كثرتها إذا نُقِلَ الغرسُ من موضع إلى موضع آخر، والشَّيخ بالمريد ينقله من مَقام إلى مَقام حتى ينتهي إلى الأحوال الشَّرِيفَة.

وقد اعتبر الشَّرع الشَّريف وجوبَ التّعليم في الكَلْبِ المعلم وأحَلَّ ما يقتله لأنّ قتله لما كان من التّعليم كان بلا متابعة هواه بل لأَمْر مَنْ هو تحتَ أمْرِهِ، فكذلك لا يأكل منه بخلاف ما قتله غَيْر المعلم، فإنّه لَمَّا كان بهواه أثَّرَ فيه الهَوَى بالتّحريم، كما أثَّرَ تَركُ الهَوى في الأوَّل بالتّحليل.

---

[1] الحسن بن علي بن محمد أبو علي الأستاذ الدقاق الزاهد النيسابوري شيخ الصوفية وشيخ أبي القاسم القشيري، توفي سنة ٤٠٦هـ، وقيل: ٤١٢هـ. الصفدي: الوافي بالوفيات ١٢: ١٦٥.

فكذلك من ليس له معلم غَلَبَ عليه الشَّيْطان الذي هو أُستاذ الهَوَى، ولا يَحِلُّ الاقتداء بمثله ولا يصير كاملًا مكملًا غالبًا، وقد قال أهل المعرفة نفع الله بهم: مَن لم يَرَ مُفْلِحًا لم يُفْلِح، أيُّ مريدٍ لم يَرَ شيخًا يُرَبِّيهِ لم يُفْلِح لِغَلَبَة هَوَاه وعدم استقلاله برفع هَوَاه.

وقالوا أيضًا: إنّه يَسْرِي من باطن الشيخ حالٌ إلى باطن المريد كسراج يقتبس من سراج.

وبالجملة: فلو لم يكن التّعليم مفيدًا لما اشتَغَلَ به رسول الله ﷺ مع أصحابه وهُمْ أَصْفَى وأَكْمَل مِنَّا، وقد تَلَقَّوا العِلْمَ والأدَب من رسول الله ﷺ في كلّ شيء، ولَمْ يستقلُّوا بعُقُولِهِم مع كمالها، فَكَيْفَ لنا أن نستَقِلّ مع نقصانها.

وَمِنْ ثَمَّ قال العارِفون قُدِّسَ سِرّهُم: قد يبلغ المريد بنظرة من شَيْخِه ما لم يبلُغه بمجاهدَتِه أعوامًا كثيرة.

وماذا يُنْكِر المُنْكِر من قُدرة الله تعالى أعطاه بعض عبيده لَحْظًا يُفيدُ بها أحوالًا سنيةً لمن يحبّه، فإنّ الله سبحانه وتعالى كما يجعل في بعض الأفاعي وهو المسمَّى بالصِّلانة[1] إذا وَقَعَ نَظَره على الإنسان يُهْلِكُه بِنَظْرَة واحدة، فلا يبعد منه أن يجعل في نظر بعض خواص عباده في مقابلة ذلك أنه إذا نَظَرَ إلي طالبٍ صادقٍ يُكْسِبهُ حالًا حياة قلبه بالحياة الأبدية بل هو كالواجب، لأنّ تلك الأفاعي من المظاهر الجلاليّة، فلا بُدَّ في مقابلته ما يكون من المظاهر الجماليّة.

وإلى هذا يشير ما كنتُ أسمعه من شَيْخِنا العلّامة العارِف بالله تعالى الأستاذ الشَّريف الحسين ابن الإمام عبد الرَّحمن بن محمد العيدروس نفع

---

(١) الصلانة هي الأفعى السامة التي تلدغ على حين غرَّة.

الله بهم. وهو كما أنّ المعيان[1] إذا نَظَرَ إلى بعض الأشخاص يَحْصُلُ له في الحال مرض من الأمراض وقد يموت بسببه، فكذلك يوجد في بعض أولياء الله ما يقابله. ولعلّ لهذا السِّرّ كان شَيْخنا العلّامة العارِف بالله تعالى الأستاذ الوالد مصطفى[2] بن حضرة شيخنا العلاّمة العارِف بالله الإمام شيخ العيدروس نَفَعَ الله بهم يكثر الأخذ في الإفادة عَمَّن هو فوقه ومثله بل على من هو دونه كما شاهدتُ ذلك منه مرّات.

وإنّما قُلْنَا: ولعلّ، ولم نجزم بذلك لاحتمال أنه كان يفعل ذلك هضمًا لنفسه النّفيسة.

أعلى رياضات النفس:

وقد قال سيِّدي الأستاذ الشَّريف عبد القادر الجيلاني نفع الله به: مَنْ طَابَتْ نفسه أن يَقْرأ على أحد من أقرانه أو يتَتَلْمَذُ له خرج من روعونات نفسه، وذلك من أعلى رياضات النَّفْس، بل أعلى من الجوع والسَّهَر والعُزْلة. انتهى.

أحوال الشيخ مع المريد:

واعلم أيّها الطّالب: أنّ للمريد مع الشَّيْخ أوان ارتضاع يستمدُّ فيه من الشيخ وأوان فِطَام، والشَّيْخ يعلم غاية ذلك، ولا ينبغي للمريد أن

---

[1] المعيان هو صاحب العين أي الحاسد الذي يصيب الناس بعينه.

[2] والد المؤلف السيد العلامة مصطفى بن شيخ بن مصطفى العيدروس، ولد سنة ١١١٠هـ، تلقى العلوم على جماعة من علماء عصره منهم الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله بلفقيه في التفسير والحديث والفقه والتصوف والعربية، وكانت وفاته سنة ١١٦٤هـ. العيدروس: عقد اليواقيت ٢: ١٠٤.

يفارق الشيخ بِظَنّ بلوغه أوان الفِطام إلّا بإذن الشّيخ، لأنّ المريد لقصوره كثيرًا ما يلبس عليه ببلوغه أوان الفِطام، ولا يأذن الشيخ للمريد في المفارقة إلّا بعد علمه يقينًا بأن للمريد أوان الفِطام، وهو أنه صار يستقلّ بنفسه، وذلك الاستقلال أن ينفتح عليه باب الفَهْم من الله بأن بَلَغَ مقام الرُّوح أو مقام القَلْب، ويرى مِنْ هَوى النَّفْس وكدوراتها، وجُوب خواطره فلم يَكَدْ يخطئ في أمرٍ من الأمور.

وليس كذلك بالنسبة إلى بعض الأمور، بل إذا صار المريد قادرًا على إنزال جميع حوائجه ومهامه بالله تعالى مع الفهم منه بتعريفاته وتنبيهاته بعد غاية التذلّل منه لله وإظهار افتقاره له، فحينئذٍ بَلَغَ أوان الفِطَام، ولو فارق قبل ذلك، كان مفارقته حال حياة هوى النَّفْس فترجع إلى غلبتها فتلحقه العِلَل الكاملة حتّى أنّه يرجع إلى الدُّنيا ومتابعة الهَوَى مثل ما يلزم المفطوم لغير أوانه في الولادة الطبيعيّة من ثِقَل الطَّعام وسوء هضمه.

وإن رأى الشيخ المريد بليدًا أو خاف عليه ردَّه إلى الأعمال الظَّاهِرة وخدمة المريدين لينال بركتهم، وكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له، ولمثلِ هذا قيل: عليكم بدين العجائز، وعلى كلّ حال فإنّ مُحِبّ القَوْم الذي لا يستطيع أن يعمل بعملهم له رتبة المعيّة معهم، وإن كان من وَجْه دون وَجْه، وأمّا قول الشَّاعر رحمه الله تعالى:

تَعْصِي الإله وأنت تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هذا لَعَمْرِي في القياس بديعُ
لو كان حُبَّك صادِقًا لأطَعْتَهُ ... إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

ففيه دلالة على النّقص لا على النّقض. فافهم.

لكل ذكر تنوير خاص:

واعلم إنّه لمّا كان لكلّ ذكر تنوير خاص اختار للسَّالك جمع من العارفين نفع الله بهم من الذِّكر ذِكْرًا يَجْمَعُ خواصّ سائر الأذكار وهو كلمة لا إله إلّا الله إذ لها خاصيّة عظيمة في تنوير الباطن بتجلّي الوحدة الإلهيّة بالتّوحيد الخاص الذي هو المقصد الأعلى الذي ليس وراءه مرمى لرامٍ ولا مرقاة لراقٍ، وإن كان عن وجوه يتفاوت إلى صاف وأصفى إلى ما لا نهاية، فلا يزال السَّالك يردِّد هذه الكلمة على لسانه مع مواطئة القَلْب، إذ بدون مواطئة ليس لها تأثير يُعْتَدُّ به، وإن كان لا يخلو عن فائدة. ولا يقتصر على ذكر القَلْب من أوَّل الأمر، لأنّ لها توجُّهًا إلى عالم الشَّهادة ويشغله ذلك عن الذِّكر المتمحِّض الذي به التَّوَجُّه إلى العالَم الأعلى، فإذا صادفَ عالَم الشَّهادة مُتَوَجِّهًا إليه كَمُلَ تَوَجُّهِه إلى العالم الأعلى، حتّى إنّه ينقطع عن عالَم الشَّهادة بالكُلِّيَّة، وحينئذٍ تصير الكلمة متأصِّلة في القَلْب راسخة فيه، فإذا اتّصَلَت فيه أحالت حديثَ النَّفْس عنه، لأنّ نوريتها تذهب بظُلمة النَّفْس فينوب معناها في القَلْب عن كلّ حديث النَّفْس نيابة نور النّهار عن ظُلمة الليل، فإذا غَلَبَ تَنَوُّرُ القَلْب بها أدرك جمالها فَتَغْلِبُ عليه لَذّاتها فتستولي الكلمةُ على القَلْب ويسري أثَرُ ذلك إلى الظّاهِر حتى تسهل الكلمة على اللِّسان فينطِق بها مِنْ غير كُلفة. وحينئذٍ يتشرَّبها القَلْب ويَجِدُ ذوقَها فلا يكاد يتركها وإنْ تَرَكَ اللِّسَان، ثُمَّ إنّه ينقش الذِّكْرَ في القَلْب ويصير جَوْهرُ القَلْب مُتَلَوِّنٌ بِلَوْنِهِ، فَيَصِيرُ القَلْب كأنه الذِّكر والذِّكر كأنّه القَلْب، وبتجوهر الكلمة في القَلْب يَسْتَكِنُّ نور اليَقِين في القَلْب، لأنّ هذا النُّور كأنّه من عَوَارِض الكلمة إذا تجوهَرَت، والجَوَاهِر لا تذهب بذهاب صُوَرِها فإذا ذهبَتْ

صورة الكلمة من اللِّسان والقَلْب لا يزول نورُها اللازم لجوهريّتها، فإذا كَمُلَتْ نُورانيَّتُها رأى القَلْب عظمة المذكور، وانتَقَشَتْ تلك الكلمة في جوهره الصَّافي، فَيَتَّحِدُ الذِّكرُ حينئذٍ مع رؤية عَظَمَة المذكور كاتِّحاد الصُّورة المنتقشة في المرآة بالمرآة.

فإذا اتَّحَدَ برؤية عَظَمَة المذكور صار كأنّه ذكره عَزَّ وجَلّ ذاته بذاته في ذاته، وهذا التجوهر هو المَقْصَد الأقصى، ولأجله اتّخَذَ الصَّادِقُون الخلوة لا لحصول الكرامات وخوارق العادات.

علاج انحراف مزاج الذاكر:

واعلم أن نورانيّة الذِّكْر محرقةً لأوصافِ العبد مثيرةً لحرارة طبعِه بانحراف النَّفْس عن طَبْعِها، فإن خَافَ السَّالِكُ ضَرَرًا بأن حَصَلَ له انحراف في مِزاجِه فليمزج في أثناء ذكره ذلك الذِّكْر بالصَّلاة على الحَبِيب ﷺ بأن يقول: محمد رسول الله صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم، لأنَّ الصَّلاةَ على النبي ﷺ كالماء تُقَوِّي النَّفْس على طاعة الله تعالى وتُذْهِبُ وَهَجَ الطِّباع. وإليه يشير الصِّدِّيقُ رضي الله عنه بقوله الصَّلاة على محمد ﷺ: (أمحق للذُّنُوب من الماء البارد للنَّار). وقد نَصَّ ابن عطاء الله الشَّاذِلي[1] نَفَعَ الله به في مفتاح الفلاح: أنّ علامة الفَتْح ثوران الحَرارة في الباطن.

قال بعضُهُم: والعَطَشُ مُعِينٌ لذلك.

---

[1] تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم، ابن عطاء الله السكندري المالكي الزاهد المذكّر الكبير القدر، له عدة مصنفات منها: «الحكم العطائية»، و«لطائف المنن في مناقب المرسي وأبي الحسن»، توفي بالقاهرة سنة ٧٠٧هـ وقبره بالقرافة يُزار. الشعراني: الطبقات الكبرى ٢: ٢٠، الزركلي: الأعلام ١: ٢٢٢.

كيفية تجوهر القرآن بالقلب:

واعلم أنه قد يحصل تجوهر النُّور المذكور لا بذكر لا إله إلّا الله بل بتلاوة القرآن، ويُسَمَّى تجوهر نور الكلام، وذلك إذا أكثر السَّالك مِنَ التِّلاوة مع الاجتهاد في مواطئة القَلْب مع اللِّسان، وذلك بأن يُطْبِقَ المعاني بالألفاظ حتى يَفْرُغ القَلْب للمعاني بالكُلِّيَّة ولا يتوجَّه إلى إجراء الألفاظ على اللِّسان، ولا يشتغل بحديث النَّفْس حتى تجري التِّلاوة على اللِّسان من غير قَصْد ويقوم معنى الكلام مقام حديث النَّفْس لاستغراق القَلْب، فيَلْتَذُّ القَلْب بذلك ويذوق ويسري ذوقه إلى النَّفْس والبَدَن فَيُدخِل على العَبْد سهولةً في التلاوة والصَّلاة لذهاب ثِقَلِ النَّفْس فتبدل أوصافها، فتنقطع كدورتها وتُبَدَّلُ أوصافها فيتنوّر الباطن بتلك السُّهولة في التِّلاوة والصَّلاة بسريان نور الظَّاهِر إلى البَاطِن مع نور البَاطِن.

فإذا اجتمع في الباطن نور المعاني التي فيه ونور الألفاظ الجارية على ظاهره مع نور الصلاة تجوهر الكلام في القَلْب، ويكون من هذا ما كان من ذِكْرِ الذَّات فيما سبق، وهو أن يجتمع نور الكلام في القَلْب مع مطالعة عظمة المتكلِّم سبحانه وتعالى، فتحصل منه المكاشفة والمُشاهَدة والمُعايَنة.

أسرار الصلاة وعجائبها:

واعلم أيُّها الطالب الرَّاغِب أنّ لله في كل هيئة من هيئات الصَّلاة، بل في كلّ حركة من تلك الحَرَكات التي تؤدِّي إلى تلك الهيئات أسرارًا وحِكَمًا تؤدِّي إلى غرائب الأحوال وعجائب المقامات التي لا توجد في شيءٍ غيرها من الأذكار المتعارَفَةِ.

ويكفي شَاهِدٌ على ذلك اعتناء أكمل الكمل بها ﷺ في خلوته وجلوته

وهو القائل: «وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْني في الصَّلاة»[1].. و«أَرِحْنَا بِها يا بِلال»[2].. «أَحَبُّ الأعمال إلى الله تعالى الصَّلاة في أوَّلِ وقتِها»[3].

وكان ابن عباسٍ رضي الله عنهما ورحمه الله تعالى يقول: (رَكْعَتان في تَفَكُّرٍ خَيْرٌ من قِيَامِ ليلة).

وقال بعض أولياء الله تعالى نَفَعَ الله بهم: رأيتُ رسول الله ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله. أوصني، فقال: «عَلَيْكَ بالصَّلاةِ، فإنِّي استَوْصَيْتُ رَبِّي فأوْصَاني بالصَّلاة» وقال لي: «أنا أقْرَبُ ما أكُونُ إليك وأنتَ تُصَلِّي».

ولِتَحَقُّق الشَّريف الأستاذ علوي بن محمد مولى الدويلة[4] - نفع الله به - بالوراثة لِجدِّه المصطفى ﷺ كان يقول: الصَّلاةُ أعْظَمُ لذَّاتي.. وكان إذا أهَمَّهُ أمْرٌ قام وأحْرَمَ بها.

حال من تجوهر الذكر والقرآن بقلبه:

واعلم أيُّها الطَّالِب الرَّاغِب أنّ في أثناء سَيْر السَّالك في الذِّكر والتِّلاوة المتقدِّم ذكرهُما إلى حين بلوغِه ذلك المَبْلَغ من حقيقة الذِّكر

---

(1) رواه أحمد (٣: ٢٨٥)، وأبو يعلى (٦: ٢٣٧) في مسنديهما وهو حديث حسن.

(2) رواه أبو داود (٤٩٨٥) في كتاب الأدب باب صلاة العتمة. وأورده الدارقطني في كتاب العلل (٤: ١٢٠- ١٢١) وكأن سنده ليس متصلاً.

(3) رواه البخاري (٥٢٧ و٥٩٧٠) في كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة، ومسلم (٨٥) في كتاب الإيمان باب الإيمان أفضل الأعمال.

(4) أحد أجداد السادة آل باعلوي، مولده بمدينة تريم في حضرموت وحفظ القرآن العظيم وصحب محمدًا أباه والشيخ عبد الرحمن السقاف أخاه ولازمه حتى تخرج به ثم لازم أنواع الطاعة حتى ظهرت عليه علامات الصلاح وقد توفي سنة ٧٧٨هـ. الشلي: المشرع الروي ٢: ٢٠٩ - ٢١٠.

والتِّلاوة أي تجَوْهر نورُهما في الاتِّحاد مع رؤية عَظَمة المذكور، قد يَغِيبُ السَّالك في الذِّكْر أو التِّلاوة عند صفاء باطنه من كمال أُنْسِهِ بالذِّكْر الذي هو فيه لتلذُّذِه به فَيَجِدُ فيه مِنَ الحَلاوة ما لا يُقَدِّرُ قَدْرَهُ إلّا مَنْ أذاقه الله ذلك، فيلحق في غيبته بالنّائم ويقرب من حالة الفناء لأنّ من غَلَبَتْ عليه اللَّذّة يكون كذلك كما يحصل ذلك في وقت الإنزال التّام عند الجَماع المستجمع شرائط لَذَّتِه، وإذا صار كالنَّائم انقطعت عنه الحواس الظَّاهِرة، فتتوجَّه الحواس الباطِنَة إلى عالَم الغَيْب بعدما كانت متوجِّهَة إلى عالَم الشَّهادة، وتتجرَّد النَّفْس عن حُجُبِ الحَوَاسّ الظَّاهِرة، وتنقطِع عن التَّوَجُّهِ إلى عالَم الشَّهادة، فتصير مُحَاذِيَةً لعالَم الغَيْب، وحينئذٍ تَنْكَشِفُ له الحَقَائِق الغَيْبِيَّة مَعَاني مجرَّدَة مُلَبَّسَة بصورة خالية يَعْبُرُ عنها إلى تلك المَعَاني كما تنكشفُ للنائم معاني مجرَّدة في لِباس صور خياله كانكِشاف ظَفَرِهِ بعدوه في لبسة صورة قتل الحَيّة فَيَقُول المعبِّر: تظفَر بالعدو عبورًا من هذه الصُّورة إلى المَعْنى المتجرِّد.

الكشف الصريح:

فإن ترقَّى عن ذلك حَصَلَ له الكَشْفُ الصَّرِيح وهو أن تتجرَّد لَهُ الحَقائِق من غير لبسة المثال التي يعبر عنها إلى تلك الحَقَائِق، وهذا أعلى من الكَشْف الخَيَالي لأنّه كَشْف بلا واسطة مثال، وذلك الكَشْف قد يكون برؤية مثال الواقع على صورته في الخارج، وقد يكون بسماع هاتف[1] يدلّ عليه مِن باطِنِه أو من الهَوَاء أو من غيرهما.

---

(١) الهاتف: النداء الذي يسمع دون أن يُرى صاحب الصوت.

هذا في اليَقَظَة وأمّا في المَنَام فإنّه يرى حقيقة الشيء من غير لبسة الخَيَال، فَيَظْهَر مثل فَلَق الصُّبح[1] كما قالت عائشة[2] رَضِيَ الله عنها في حقِّه ﷺ فأفهمه راشدًا.

تنبيه: ليكن في ذهنك أيُّها الطَّالب الرَّاغب أنّ الحلاوة سواء كانت كالمتقدِّم ذكرها أو الحلاوة المدخولة المعلومة إلّا ما فيها من تنشيط العباد للمواظبة على العبادة، وهي التي يجدها في بعض العبادات من ليس هو من أهل المقام الذي قدّمناه لا ينبغي للسَّالك إذا وجدها أن يقف معها ولا يفرح بها ولا يسكن إليها، وكذلك أيضًا لا ينبغي له أن يقصد بعمله إلى نيلها لما فيها من اللّذّة والحَظّ، فإنّ ذلك ممّا يقدح في إخلاص عبادته وصِدقِ إرادته، وليكن اعتناؤه بحصُولِها لتكون ميزانًا لأعماله ومحكمًا لأحواله فقط.

قال الواسطي[3] نَفَعَ الله به: استحلاء الطَّاعات سمومٌ قاتلةٌ.

قال ابنُ عَطَاء الله[4] في (لطائف المنن)[5]: وصدق الواسطي، وأَقَلّ ما في ذلك أنه إذا فُتِحَ لك باب الحلاوة في الطَّاعة تصير قائمًا فيها متطلِّعًا[6]

---

(١) قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرح صحيح البخاري (١: ٢٣): (أي جاءت مجيئًا مثل فلق الصبح. والمراد بفلق الصبح ضياؤه. وخص بالتشبيه لظهوره الواضح الذي لا شك فيه).

(٢) في الحديث المشهور الذي رواه البخاري (٣) في كتاب بدء الوحي.

(٣) الإمام أبو بكر محمد بن موسى الواسطي، من أصحاب الجنيد والثوري، أصله من فرغانه، ودخل خراسان واستوطن كورة مرو. ومات بها سنة ٣٣١هـ وكان عالمًا بأصول الدين. الشعراني: الطبقات الكبرى ١: ٩٩ ـ ١٠٠، الزركلي: الأعلام ٧: ١١٧.

(٤) ابن عطاء الله السكندري، وقد تقدمت ترجمته.

(٥) لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن، ص ٣٠٤.

(٦) في لطائف المنن: متطلبًا.

لحلاوَتِها فيفوتَكَ صِدْقُ الإخلاص في نهوضك لها، وتُحِبّ دوامها لا قيامًا بالوفاء ولكن لما وجدت من الحلاوة والمُتْعة، فتكون في الظَّاهِر قائمًا لله تعالى وفي الباطن إنما قُمت لحَظّ نفسك، ويُخْشَى عليك أن تكون حلاوة الطَّاعة جزاءً تعجّلته في الدُّنيا وتأتي يوم القِيَامة ولا جزاء لك، انتهى.

علامة الحلاوة غير المدخولة:

وعلامة الحلاوة الغير المدخولة ما قاله بعض أهل المعرفة نفع الله بهم: التهاون بالأمر من قِلّةِ المعرفة بالأمر، فإنّ العصيان في حال العِرْفان بعيد، فإن وقَعَتْ منهُ زَلّةٌ أو هفوةٌ بحكم، وكان أمرُ الله قدرًا مقدورًا وَجَدَ ذلك لا مَحَالَةَ مرارةً وألَمًا في قلبِه، فوجدانُ هذه المَرارة والألَمَ في المعصية علامة صِحَّة ما وجد من الحَلاوة. انتهى.

وقد أطَلْتُ الكَلَام على ذِكْرِ الحَلَاوَتَيْن في شَرحِي على بعض أنفاس الشَّريف الأستاذ العَيدروس أبي بكر نَفَعَ الله به، وذلك الشَّرح في نحو عشرين كرَّاسًا وهو المسمَّى بالفتح المُبين من أنفاس العيدروس فخر الدين[1]، فليراجع ذلك من أراده.

أحوال العارفين:

واعلم أيُّها الطَّالب الرَّاغب أنّ للعارفين نَفَعَ الله بهم أحوالًا عجيبةً عند اشتغالهم بقراءة القرآن والذِّكر كما قال الأستاذ الشَّريف سيِّدي عُمَر المحضار علوي[2] نَفَعَ الله به: إنّ الصَّالحين إذا قرأوا القرآن أفْنَوا الحُرُوف

---

(١) كتاب الفتح المبين هو أكبر شروحه على قصيدة الإمام أبي بكر بن عبد الله العيدروس العدني، وله شرحان آخران على هذه القصيدة.

(٢) سبقت ترجمته.

والصَّوت، ثُمّ وَقَفُوا في بحر ثُمّ يَضْمَحِلُّ ذلك البحر فيَبْقُون معلّقين في الهَوى مع الهَيْبَة والتَّعظيم، ثُمّ قال: ونحن ندخل في هذا.

وكان الأستاذ سيدي سعد بن علي صاحب العيدروس نفع الله بهما كثيرًا ما يذوب حال التلاوة بحيث يصير جسده كالماء الجامد، وكان سيدي الأستاذ الشّريف عبد الرَّحمن السقّاف نفع الله به حتى في حالة النَّوم يسمع بعض أهل الكشف ذكر قلبه بكل شعرة وبشرة، وثيابه يسمعها ذاكرة كأنهم صبيان في كُتَّاب.

وكان والد السَّقّاف المذكور سيِّدي الشَّريف الأستاذ محمد مولى الدويلة علوي نَفَعَ الله به يقول: قد نذكر باللِّسان والقَلْب ثُمّ نَفْنِي الحروف ثم نَفْني اللِّسان -أي الصوت- فتبقى في القَلْب شمعة من نور متَّصلة بالله تعالى.

وكان الأستاذ الشَّريف سيِّدي محمد جمل اللَّيل علوي[1] نَفَعَ الله به يقول: إفناء الحُرُوف حال تلاوة القرآن يسهل علينا بخلاف إفناء الأصوات، وكان يقول: إذا طَهُرَ القَلْب لم يَشْبَع من تِلَاوَةِ القرآن، وكان يقول عند تِلَاوة القرآن: ما أحلى هذا، ما يشبهه في الحلاوة سُكَّر ولا شَهْد ولا غيره.

وكان سيِّدي الأستاذ المحضار المتقدِّم ذِكْره يقول اسم (يا لطيف) في نَفَسٍ واحدٍ ألف مرة، وكان بعض خُدَّامِهِ يقوله في نَفَسٍ واحدٍ خمسمائة مرة.

---

[1] محمد بن حسن المعلّم بن محمد أسد الله بن حسن بن علي ابن الأستاذ الفقيه المقدم، وتلقب بلقبين: الشيبة، وجمل الليل. ولد بمدينة تريم سنة ٧٥٠هـ، فحفظ القرآن وصحب أباه وعمه أحمد وتفقه وأخذ عن علماء زمانه في الحديث والتفسير والتصوف، وكان يقيم بالقرية المشهورة بروغة، توفي سنة ٨٤٥هـ ودفن بمقبرة زنبل وقبره بها معروف يزار. الشلي: المشرع الروي ١: ١٧٧- ١٧٩.

ووقع لسيِّدي الشَّريف الأستاذ العيدروس أبي بكر نَفَعَ الله به أنه قرأ في يوم واحد سبعين ألف ختمة، وهو القائل في بعض أنفاسه النّفيسة شعرًا:

أمَّـا أنـا فــي ذكركم كلِّـى لهـا　　　وجوارحى فيكم عيـون كلهــا

وقد كوشف بذلك بعض علماء زمانه فرآه كله ألسنةً ذاكرةً وعيونًا ناظرةً، وكان بعض أكابر العارفين ممن توسع في علمي الظاهر والباطن ملازمًا في جميع أوقاته على قول: (لا إله إلا الله) فكان إذا نام يُسْمَعُ هديره بها، وكان يقول: أسرع الأذكار نتيجة (لا إله إلا الله) وقراءة سورة الإخلاص، ولو كنت في مبدأ أمري أعلم ما في لا إله إلا الله من الأسرار لما طلبت شيئًا من العلوم.

وكان بعضهم ملازمًا على لفظ (الله. الله) فوقعت خشبةٌ على رأسه فوقع دمه على الأرض وهو على صورة ألفاظ (الله. الله) ولما قطعت أوصال الحلاج نفع الله به وهو مصلوب وقع دمه على الأرض الله الله.

فأنشد شعرًا:

مَا قُـدَّ لي عضــوٌ ولا مفصــلٌ　　　إلَّا ولــى فِيــهِ لكــم ذِكْــــر

وقد سئل الأستاذ الشَّريف سيِّدي عبد الله بن شيخ العيدروس[1] صاحب الشِّحر نَفَعَ الله به عن كَوْن هذا لم يَقَع للإمام الشَّهِيد الحُسَيْن

---

[1] هو السيد الشريف عبد الله بن شيخ بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله بن شيخ ابن الشيخ عبد الله العيدروس ولد بمدينة تريم سنة ١٠٢٧هـ، وربّاه عمه الشيخ زين العابدين، واشتغل بتحصيل علوم الدين ونبغ فيها، ورحل إلى الشحر والحجاز والهند ثم عاد إلى تريم وعقد بها الدروس ورحل بعدها إلى الشحر وبقي فيها حتى وفاته سنة ١٠٧٣هـ. الشلي: المشرع الروي ٢: ١٧٧ – ١٧٨.

السِّبْط رضي الله عنه مع كونه أعلى مقامًا وحالًا من الحلّاج بِلَا شَكّ ولا مرية فأجاب: بأن الحلّاج إنّما قُتِل على اعتقاد قاتله أنّه كَفَرَ فأظهر الله براءته بذلك عند ذلك، وأمّا الحسين فإنّه لم يُقتل على ذلك لعصيان قاتليه بقتله ظاهرًا وباطنًا، وإنّما ألجأهم البَغْيُ والحَسَد والطُّغْيان على مقاومته مع علمهم من هو، بخلاف الحلّاج فإنّ قاتليه لهم نوع شبهة وعذر، بل هم مصيبون في ذلك لوقوفهم مع مظاهر الشَّريعة فلهم أسوة بالسيد موسى عليه السَّلام في إنكاره على الخَضْر عليه السَّلام، لكنه وقوف على الظَّاهر وفيه القُصُور.

فلذلك قال نبيُّنا ﷺ في حَقّ موسى: «لَيْتَهُ صَبَرَ»، إذ يمكن حمل كلام العارفين على الأمر الصَّحيح عقلًا وشرعًا كما قال حُجَّةُ الإسلام الغزالي نَفَعَ الله به في حَقّ الحلّاج في قوله: أنا الحَقّ، إنّه استغرق بالحَقّ حتى لم يكن فيه متَّسَعٌ لغيره، وما أخذ كليّة الشيء واستغرقه قد يقال: إنّه هو.. انتهى.

حرارة الذكر:

واسمع هنا ما قاله ابن عطاء الله[1] فيما يتعلّق بالذِّكر فإنّه من عطاء الله وهذا ما قاله: الذِّكْر نارٌ لا تُبْقِي ولَا تَذَر، فإذا دَخَلَ بيتًا قال: أنا لا غيري، وهو من معاني لا إله إلّا الله، فإذا وَجَدَ فيه حطبًا أحرقه فصار نارًا، وإن كان فيه ظُلْمَة كان نُورًا فَنَوَّرَه، وإن كان فيه نورًا صار نورًا على نُور، إلى أن قال: والذِّكر مُذْهِب من الجسم الأجزاء الزَّائدة الحاصلة من الإسراف في الأكل ومَنْ تَنَاوَل اللُّقم الحَرام، وأمّا الحاصلة من الحَلال فلا بُدّ له منها[2]، فإذا

---

(١) ابن عطاء الله السكندري: مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح في ذكر الله الكريم الفتَّاح ص ٨.

(٢) في مفتاح الفلاح: عليها.

احترقت الأجزء الخبيثة وبَقِيَتْ الطَّيِّبة سمعت من كل جزء ذكرًا كأنّه ينفخ في البوق، وأوّل ما يَقَع الذِّكر في دائرة الرَّأس، فتجد فيه صوت الكؤوس البوق.

الذكر سلطان:

والذِّكر سُلْطان إذا نَزَلَ موضعًا نَزَلَ ببوقاته وكؤوساته، لأنّ الذِّكر ضِدّ ما سوى الحَقّ، فإذا وَقَعَ في موضع اشتغل بنفي الضِّدّ، كما تجده من اجتماع الماء والنَّار، وبعد هذه الأصوات تسمع أصواتًا مختلفة مثل خَرِير الماء ودَوِيّ الرِّيح وصَوْت النَّار إذا تأجَّجَتْ، وصَوْت الأرْحِيَةَ[1] وخَبْطِ الخَيْل وصَوْت أوْراق الأشجار إذا هَبَّت عليها الرِّيح.

وذلك لأنّ الآدمي مُرَكَّبٌ من كُلّ جَوهَرٍ لَطِيفٍ شَرِيفٍ ووَضِيعٍ من التُّراب والماء والنَّار والهَواء والأرض والسَّماء وما بينها، فهذه الأصْوَات أذكار كلّ أصلٍ وعُنصرٍ من هذه الجَوَاهِر، ومَنْ سَمِعَ منه شيئًا من هذه الأصْوَات فقد سَبَّحَ الله تعالى وقدَّسَه بِكُلِّ لِسَان، وذلك نتيجة ذِكْر اللِّسان بقوّة الاستغراق.

وربّما صار العَبْدُ إلى حالة إذا سَكَتَ عن الذِّكْر تَحرَّكَ القَلْب في الصَّدْر حَرَكَة الولد في بَطْنِ أمِّه يَطْلُبُ الذِّكْر، قالوا: فإنّ القَلْب مثل عيسى ابن مريم عليهما السَّلام والذِّكْر لَبَنه، وإذا كَبُرَ وقَوِيَ صَعَدَ منه حَنِينٌ إلى الجَوّ وصوتٌ وصَعَقَاتٌ إلى الذِّكر والمَذْكور، وذِكْر القَلْب يُشْبِه زَنَّةَ النَّحل لأنّه لا صوت رفيع مشوّش ولا خَفِيّ شَديد الخَفَاء. انتهى.

---

[1] جمع رحى: وهي الآلة التي تتخذ لطحن الحبوب.

الذكر الجامع لجميع الخواص:

وممَّن كان له وِرد من ذكر (لا إله إلّا الله) سبعين ألف في كلّ يومٍ لجامعية هذا الذِّكر خواصّ جميع الأذْكَار سيّدنا الأستاذ الشَّريف أحمد بن أبي بكر السَّكران[1] أخو العيدروس نَفَعَ الله بهم، وكذلك سيِّدنا الأستاذ علي بن أبي بكر[2] أخو العيدروس كان كثير التكرار لِـ لا إله إلّا الله ليلًا ونهارًا، وهو القائل في بعض أنفاسه شعرًا:

لَنا فى كَلِمَةِ التَّوحِيدِ سِرٌّ   وفي تكرارها كَنْزٌ يَطُول

وكذلك سيِّدنا الأستاذ الشَّريف عبد الله باحسين السّقَّاف علوي[3] نَفَعَ الله به كان وِرده من (لا إله إلّا الله) وهو ابن سبع سنين سبعين ألفًا، وهو القائل في بعض أنفاسه شعرًا:

وَذِكْرُ الله مَشْروبى وَزَادي   وَذِكْر الله فَتْحِى للبلادِ

حالات الوجد:

واعلم أيُّها الطَّالب الرَّاغب وليكن ذلك في ذهنك أنه متى حَصَل لك وَجْدٌ فلا تَخْلُو حركتك فيه من ثلاثة أشياء، وذلك أنّه إذا كانت حركتك

---

(١) أحمد بن أبي بكر بن عبد الرحمن السقاف، ولد بتريم وحفظ القرآن العظيم، ونشأ في حجر والده وأخذ عنه وهو صغير وكتب عنه الكثير ولقّنه الذّكر، وكان غاية في الزهد والقناعة. توفي بقرية اللسك سنة ٨٦٩هـ وحمل إلى تريم ودُفن بمقبرة زنبل. الشلي: المشرع الروي ٢: ٥٠.

(٢) هو الشيخ نور الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر ابن الشيخ عبد الرحمن السقاف، ولد بمدينة تريم سنة ٨١٨هـ، ونشأ بها، وحفظ القرآن الكريم، وكان كثير الاعتناء بكتب الإمام الغزالي، ورحل لطلب العلم إلى الشحر وعدن وزبيد ومكة والمدينة ثم عاد ونصب نفسه للتدريس إلى أن توفي سنة ٨٩٥هـ ودفن بمقبرة زنبل وقبره بها معروف يزار. الشلي: المشرع الروي ٢: ٢١٥– ٢١٨.

(٣) هو السيد الشريف عبد الله بن السيد علي باحسين السقاف المكي، له عدة مؤلفات منها: «إيضاح الكشف الأكبر»، و«كتاب النفس الرحماني»، «تنبيه السالكين» وغيرها، توفي سنة ١١٥٢هـ. الشلي: المشرع الروي ٢: ٢٠٢.

فيه من غَلَبَة الخَوْف فإنّك تكون كالمُرتَعِش الذي تَغْلِبُ عليه الحَرَكة، وإن كان من غَلَبَةِ الرَّجاء فتكون حركتك كالعَطْسَة التي لا تَقْدِر أن تَرُدَّها، لأنَّ العُطَاس يُرجَى به الخِفَّة، وإن كانت من غَلَبَةِ الفَرَح والوِجْدان فتكون الحَرَكة كحَرَكَة النَّفَس الذي يَتَنَفّسه المُتَنَفِّس بالضَّرورة، إذ يحصل ذلك عند وجود الفَرَح، وفي جميع هذه الأمثلة لا يُشْتَرَط الاضطرار الكُلّي والغيبة الكُليَّة، فإنّ المحموم تأخُذه الرّعدة مع الحُمّى مع أنّه غير فاقد العقل، نعم يقع لبعض الواجدين الغيبة الكُلِّيّة كما وَقَعَ لوالد سيِّدي العيدروس وهو سيِّدي القطب الشّريف الأستاذ أبو بكر السَّكْران ابن عبد الرَّحمن السّقَّاف نَفَعَ الله بهما أنّه مَكَثَ أحدَ عَشَرَ شَهْرًا لا ينام ليلًا ولا نهارًا، وأحيا ليالي جميع تلك الأشهر بالسَّماع إلّا القليل، وكان يُسْمِّع عنده المُسَمِّعون أيضًا في كُلّ جمعة من جميع تلك الأشهر من بعد صلاة العصر إلى الغُروب ويَدُور بهم في الشَّوارع، وكان يَسِيرُ في تلك الأشهر وهو كالسَّكْران، وزار في تلك الأشهر العارفة بالله تعالى سُلطانة بنت علي الزُّبيدي[1] نَفَع الله بها، وكاشَفَتْ بوصوله إلى زيارتها قبل قُدُومِه إلى بَلَدِها، فقالت: رَحِّبُوا بالسُّلطان ابنِ السُّلْطان، فإنّي سَمِعْتُ الشَّاووش[2] في السَّماء نادَى بِقُدُومِه عَلَيْنا، وأرَى الملائكة عليهم السَّلام تُشَيِّعْه، وصَحِبَهُ في هذه الزِّيارة خَلْقٌ كثيرٌ، ثُمَّ إنّه نَفَعَ الله به أنكَر بعد ذلك جميع ما فعله في تلك الأشهر من السّماع والزِّيارة في الشَّوارع، وقال: لو شعرتُ بشيءٍ من هذا ما فعلته.. ومثل هذا كثيرٌ يقع.

---

[1] هي الشيخة سلطانة بنت علي الزبيدية، ولدت سنة ٧٨٠هـ، متصوفة واعظة، وصفت بالتقى والصلاح والزهد، ولها شعر صوفي، وكانت وفاتها سنة ٨٤٧هـ. الشاطري: أدوار التاريخ الحضرمي ٢: ٣٠٨.

[2] ربما يقصد أحد الملائكة الموكلين باستقبال أرواح المؤمنين.

ومن تتبّع ما وقع لأَوْلِياء الله تعالى مثل هذا في مظانه وجده، لكن أكثر الواجدين على ما ذكرنا أوّلًا، ومع ذلك لو منعوا من الحركة لتضرَّرُوا بذلك لأنّ زعقة الواجد يحصل له بها التنفّس، وهي وإن كانت بنوع إرادة فإنّ تلك الإرادة من وجه بالاضطرار، فيكفي نوع من الاضطرار ولا يضرّ بقيّة الاختيار، وإلّا فلو صَبَرَ الواجِد وألزَم نفسه الاصْطِبار لرُبّما أفضى ذلك إلى الهَلَاك الكُلّي أو الإضْرَار بِنَفْسِه والكُلّ حَرَام. فافهم.

أصناف الصادقين في دخول الخلوة:

واعلم أنّ الصَّادِقِين في دخول الخلوة على قسمين: مُحِبّ ومَحْبُوب.

١) فالمُحِبّ يدخل الخلوة على مراغمة النَّفْس الأمَّارة بالسُّوء ليحصل له الإخلاص والصِّدق، وإنّما كان مراغمًا لنفسه لأنّها بالطّبع كارهة للخلوة لمنافاتها مخالطة النَّاس، والنَّفس بالطّبع مَيَّالة إلى المُخَالطَة لأنّ شهواتها لا تتمّ بدون المخالطة، والمخالطة في الغالب مانعة عن أصل العبادات، فإن تكلَّفَ تحصيلها دعته غالبًا إلى الرياء والنِّفاق وسائر المعاصي والشّهَوات.

والنفس إذا أزعجها المريد عن عاداتها التي استقرَّت عليها من الصِّغَر، وذلك بحبسها في طاعة الله تعالى تأَلَّمَتْ بذلك لأنّه على خِلاف مقتضاها، فيحصل لها كل حينٍ مرارة، وكل مرارةٍ تدخل عليها تُعَقِّبُ حلاوةً في القَلْب، لأنّه بالطَّبع مائل إلى الجناب العلوي ومائلة إلى الجناب السُّفْلي على خلاف طَبْعِه، لكن تغلب عليه النَّفْس ويساعدها الشيطان على ذلك لأنّها تلميذته لتجذب القَلْب إلى جانبها، فإذا أدخل عليها المريد مرارة الطّاعات ضعفت عن ذلك الجذب فيرجع القَلْب إلى مقتضى طبعه فتحصل له حلاوة الطّاعة وكلما حصلت له حلاوة الطاعة أحبّ الإخلاص فيها

والصدق لتحصل له الطاعة سالمةً، والمحبّ يطلب سلامة المحبوب، ولما وجد حلاوة الطّاعة صارت محبوبةً له فأَحَبّ سلامتها.

شروط كمال الخلوة:

واعلم أَيُّها الطَّالب الرَّاغب أنها لا تكمل لك الخلوة إلّا بمحو اسمك من القوم، وذلك بأن لا تستحلي اعتقاد الخلق فيك لكونك تخلّيت عنهم، وذلك بأن تترك استقبال باطنك وتوجهه إليهم وإلى ما يقولون فيك، بل تستقبل جدار خلوتك ولا تلتفت إلّا إلى شأنك حتى تفنى نفسُك بالكليّة، فإنّ الوحدة والخلوة موصلان إلى الفناء، بل موصلان إلى المقامات كلّها من البدايات والنهايات.

النوع الثاني من أصحاب الخلوة:

٢) وأما المحبوب فهو الذي تنبعث من باطنه - أي الرُّوح أو القَلْب - داعية الخلوة فتنجذب نفسه المطمئنّة إلى ذلك طَوْعًا، وهذا أتمّ من جهة نفسه إذ ليس فيها نقصان الأمَّارية، وأكمل من جهة القَلْب إذ ليس فيه من كدورة نفسه شيء، وأدلّ على كمال استعداد روحه حيث كان مناسبًا للحضرة الإلهية بلا واسطة كسب سابقٍ، وهذه الحالة -أي حالة المحبوبية- كانت حالة الحبيب رسول الله ﷺ، إذ رُوِيَ عن حاله ما يدل على ذلك[1]، واعلم أنّه ورد عن النبي ﷺ من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّه قال ﷺ: «ليأتيَنَّ على النَّاس زَمَان لا يَسْلَم لذي دينٍ دينه إلّا مَنْ فَرَّ بِدِينِه مِن قرية إلى قرية ومِن شاهِقٍ إلى شَاهِق ومن جُحْر

---

[1] أي لما كان يختلي في غار حراء الليالي ذات العدد كما روى ذلك البخاري في صحيحه (٣) في كتاب بدء الوحي.

إلى جُحْر كالثَّعْلَب الذي يُرَوَّع. قالوا: ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال: إذا لم تُنَلِ المعيشة إلّا بمعاصي الله، فإذا كان ذلك الزَّمان حلَّتْ العزوبة قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وقد أمَرْتَنَا بالتَّزْوِيج؟! قال: إنّه إذا كان ذلك الزَّمان كان هَلَاك الرَّجُل على يَدِ أبَوَيْه، فإن لم يكن له أبَوان فَعَلى يَدِ زَوْجَتِه ووَلَدِه، فإن لم يكن له زَوْجة ولا وَلَد فَعَلى يَدِ قَرابَتِه قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟! قال: يُعَيِّرُونَه بضيق المَعِيشة فيتكلَّف ما لا يطيق حتى يُورِدُهُ ذلك مَوَارِد الهَلَكة»[1]. انتهى.

أضرار الخلطة:

قال بعض من كتب تحت هذا الوارد من أهل المعرفة نَفَعَ الله بهم: أي ليأتِيَنَّ على النَّاس زَمَان لا يَسْلَمُ فيه لذي دينٍ دينَه لكثرة خُلَطَاءِ السُّوء من الأهل والأولاد والأقارب والأصحاب وغيرهم ممّن يجتمع على الشَّخص باعتقاد الكَمَال قبل أوانِه، فيأخذ نفسه العجب والرِّياء إلّا مَنْ فَرَّ بِدِينِه من قريةٍ إلى قرية، فإن لم يتيسَّر فَمِنْ شاهق جبلٍ إلى شاهِقٍ ثانٍ، فإن لم يتيسَّر فبغاية الإخفاء والتلبُّس بلباس العامّة من جُحْرٍ إلى جُحْر كالثَّعْلَب الذي يَخَافُ من كلّ أحدٍ، قالوا: ومتى ذلك الزَّمان يا رسول الله؟ قال: «إذا لم تُنَلِ المعيشة إلّا بمعاصي الله تعالى» يكون سُلطانًا جائرًا أو قاضيًا مرتشيًا أو جاهلًا أو متولّي وَقْفٍ أو وصايةٍ خائنًا فيهما أو متقربًا إلى أحدهم بالسّعاية أو الفحش أو باكتساب الحَرام، فتعمّ الفتنة بين النّاس فلا يصلح أحدٌ

---

[1] رواه الخطابي في كتاب العزلة (١: ١٣) من حديث ابن مسعود مرفوعًا ، والبيهقي في كتاب الزهد الكبير (١: ٤٥٠) من حديث أبي هريرة مرفوعًا، والرافعي في تاريخ قزوين (٢: ٢١و١٨٦) وهو حديث ضعيف.

للصحبة، فإن صَلُحَ فلا يخلو هذا الشَّخْص عن بقاء نفسه فيظهر معهم قبل أوان الظّهور بالدعوى والعجب.

ثم قال عليه الصّلاة والسّلام: «فإذا كان ذلك الزَّمان امتنع كلّ صحبة ولو ضروريّة حتى حلَّتْ العُزُوبة التي هي متردِّدة بين الفريضة والسُّنّة فيصير التّزويج بحيث لا يَجب ولا يندب قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وقد أمَرْتَنَا بالتّزويج؟ أمر وجوبٍ تارةً وندبٍ أخرى، وحكمك لا ينسخ بعدك؟ فأجاب بأنه سيصير معارضًا بأمر ضرره أكثر من نفع التّزويج، وكما يسقط فيه التّزويج يسقط حَقّ الوالدَين وحَقّ صِلَةِ الرَّحم أيضًا.

وذلك إذا كان ذلك الزَّمان كان هَلَاك الرَّجُل على يَدِ أبَوَيْه، فإن لم يكن له أبَوَانِ فَعلى يَدِ زَوْجَتِهِ ووَلَدِه، فإن لم يكن له زَوْجَة ولا وَلَد فَعَلى يَدِ قَرابَتِه، قالوا: وكيف ذلك الهَلَاك وطاعة الوالِدَيْن من جُمْلَة الكَمالات التي أوصى الله تعالى بها في قوله عَزَّ من قائل: ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا** ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وغير ذلك من النّصوص، وهكذا صلة الرَّحم والتّزويج وبهما انتظام العالَم وبإخلالهما خراب العالم، فقال هي وإن كانت كمالات لكنها بهذا العارض وهو التعبير بضيق المعيشة تصير نقائص لا تقاوم كمالاتها بنقصانها ويتكلّف في تحصيلها ما لا يطيق بالحلال حتى توردە موارد الهَلَكة. انتهى.

ولله دَرُّ شيخنا الشَّريف الفاضل جعفر الصّادق[1] بن السيِّد العَارف بالله تعالى محمد البيتي علوي نَفَعَ الله به حيث قال شعرًا:

---

(١) سبقت ترجمته.

إنّــما الخَلْطَــة خَلْــطٌ وَوَبَــا وأرى العُزْلة مـن رأي السَّــداد
ثقة الإنســان عَجْــزٌ بالـــوَرَى بعدما أُنْـزِلَ في سُـــورةِ صَــاد

يريد قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]

وبالجملة: فالعاقل طبيب نفسه، فليكن على ذهنه دائمًا قوله ﷺ: «الوِحْدَةُ خَيْرٌ مِنْ جَلِيسِ السُّوء، والجَلِيسُ الصَّالِحُ خَيْرٌ مِنَ الوِحْدَة»[1].

ولله دَرُّ من قال شعرًا:

وحـــدة الإنســـان خَـــيْرٌ مِـــنْ جَلِـيسِ السُّـوءِ عِنْـدَه
وجَلِيـسُ الخَيْـــرِ خَيْـــــرٌ مِـنْ قُعُـودِ المَـرءِ وَحْـــدَه

وقال شيخُنا الشَّريف العلّامة الوَجِيه عبد الرَّحمن ابن الإمام عبد الله ابن أحمد بلفقيه علوي نَفَعَ الله بهما في تائيته شعرًا:

وما للقاء النَّاس جَدْوَى سِوَى اللِّقا لإصلاح حالٍ أو لِتَحْصِيل حِكْمَة

الشيخ الكامل والخلوة:

حتى قال أهل المعرفة نَفَعَ اللهُ بهم في حَقّ الشَّيخ الكامل المكَمَّل فضلًا عن غيره: أنه من جُمْلَة آدابه في نفسه أن تكون له خلوة خاصّة لا يكون معه فيها أحد من الخَلْق لا ظاهرًا ولا باطنًا في وقت خاص هو فيه في غاية الصّفاء واللَّذّة مع الله تعالى، لا يسعه في ذلك الوقت في تلك الخلوة مقامات الصحبة مع الخَلْق التي يحتاج فيها إلى الجمع بين الحَقّ والخَلْق بحيث لا يحتجب بأحدهما عن الآخر حتى يستغيث بهذه الخلوة فيستفيض

[1] رواه الحاكم في المستدرك (٣: ٣٤٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٤: ٢٥٦- ٢٥٧) ولا يصح.

على من يكون معه في الخلوة، ولا ينبغي للكامل أن يدَّعي في نفسه قوّة روحانيّة يستغني معها على ترك الخلوة حيث يرى نفسه لا تحتجب بالحَقّ عن الخلق ولا بالخلق عن الحَقّ، فيظنّ بتلك الدّعوى التي نشأت عن نفسه أن استدامة المخالطة مع الخلق سيّما إذا كانت بالكلام معهم لا تضرّه بإسبال الحجاب، ولا تأخذ من حاله فتنقصه أصلًا، ويظنّ بتلك الدّعوى أنّه لا يحتاج إلى الخلوة لأنّ له في جلوته خلوة مع أنّ الأمر ليس كما يظنّ، وذلك لأنّ هذه حالة شريفة يَعْسُر بقاؤها في الخلوة فضلًا عن وقت المكالمة مع الخلق، فإنه يتدرَّج بذلك إلى النزول إلى حَدِّ البشريّة، وكيف تصحّ له هذه الدّعوى وهذا الظَّنّ بكمال نفسه ولم يتيسَّر ذلك لأكمل الخلائق كلّهم ﷺ؟!

ضرورة اتخاذ الخلوة:

فإنّ رسول الله ﷺ مع كونه في غاية الكَمال كانت له خلوة في الليل يقوم فيها ويصلِّي ويَذْكُر ويَتَفَكَّر، وكانت له صَلَواتٌ من النَّوافِل في النَّهار واللَّيل يصلِّيها ويُدَاوِمُ عليها يفعَلُها كلّ يومٍ وليلةٍ، وأوقات غير معيَّنة يخلو فيها بالتّصفية، لبقاء طبع البَشَر فيه وهو مكدر لو خلا عن السياسة، فطبع البشر لا يخلو عن اقتضاء السِّياسة المانعة عن التّكدير قَلَّ ذلك الطَّبْع أو كَثُر، لطف ذلك الطبع أو كثف، وذلك لأنّ الجمعيّة الإنسانيّة تقتضي بقاؤه بوجه من الوجوه، وبقاؤه من وجه يقتضي ذلك لا محالة، لأن بقاؤه من وجه مع التخلية عن السياسة يستلزم ظهوره بسائر وجوهه كالنّار القليلة إذا لم تنطفِ ولم تحفظ سَرَت إلى الباقي، وإذا لم يكن له بُدٌّ من وجود طَبْع البَشَر فلا بُدَّ مِنْ سياسة.

الحذر من دعوى طيبة القلب:

وكَم من مَغْرور بِطِيبَةِ القَلْب يستغني عن سياسة الطَّبع قانع عنها باليسير من طيبة القَلْب، واتّخذ ذلك رأس ماله وزعم أنّه المطلوب الكليّ من

العبادات والخلوة فاغترّ بِطِيبَةِ قلبه وغَفُلَ عن سياسة طَبْعِه حتّى غَلَبَ عليه الطَّبع فاسترسل في المُمازجة والمُخَالطَة حتّى غَلَبَتْ عليه نفسه بالظُّهُور بدعوى المَشْيَخة عن هذه الطِّيبَة اليسيرة، فقام بدعوى الإرشاد من غير إرشاد حتى جعل نفسه منهاجًا للبطّالين الذين لا يحفظون أوقاتهم ولا يضبطون نفوسهم، واستعان بذلك بلقمة تؤكل عنده وبرفقٍ يوجد عنده وهو عدم التكليف بالعزائم، فيقصده من قَصْدُهُ الأكل والرِّفق لا مَنْ قَصْدُهُ الدِّين ولا من بُغْيَتُهُ سلوك طريق المتّقين أرباب العزائم، فافتتن بهذه الدعوى وأفتن بزعم الإرشاد حال الإضلال، وأقلّ ما في شأنه أنّه بقي في خطّة القصور حيث لم يتجدّد له التّرقِّي في المَقامات العالية، كيف لا وقد وقع في دائرة الفتور عن العمل وهو فرس السير في الأحوال والمَقامات؟!.

الفقر والرجوع إلى الله في الخلوة:

وإذا كان الطَّبْع باقيًا كما قرَّرْناه فما يستغني الشَّيخ عن الاستمداد من الله تعالى، كما لا يستغني الإنسان عن الطَّعام كُلّ يومٍ ولا يُغنيه ما أكل فيما مَضَى بعد مضي مدّة طويلة عليه لبقاء المُدَّة المُحَلَّلَة فهي تحلّل بالطَّبع، وذلك الاستمداد يكون بالتضرُّع بين يدي الله تعالى بقلبه إن لم يكن بالجمع بين قالبه وقلبه، فيكون له في كل كلمة تكَلَّمَهَا مع الخلق رجوع إلى الله تعالى في خلوته وخضوع بين يدي الله تعالى، ولا يتأتّى ذلك لمن استدام المُخَالَطة مع الخلق والكلام معهم ما لم يتجدَّد بنور في باطنه كلّما وقع عليه شيء من ظلمتهم، وذلك لأنّ المُخَالطَة والمُكالَمَة تقوّي النَّفْس لا محالة ولو بعد حين، وإنّما دخلت الفتنة الدّاعية إلى ترك الخلوة والسّفل بالعبادات الظّاهرة على المغرورين بطيبة النَّفْس المُدَّعِين للقوّة الرّوحانيَّة التي لا يعارضها شيءٌ يحتاج له إلى الخلوة حتى وقع لهم الاسترسال في الكلام من غير مراجعة إلى

الله تعالى، وفي الْمُخَالطَة مع الْمُمَازَحة الكثيرة من غير عَوْدٍ إلى خلوةٍ لقلَّة معرفتهم بصفات النَّفْس، وأن من شأنها الظُّهُور بأدنى مُعِينٍ يوافق هواها واغترارهم بيسيرٍ من الموهبة، ولم يعلموا أن حِفْظَهَا صعب مع هذا الاسترسال بل محال في حَقّ الأكثر، وهذه القلّة بمعرفة صفات النَّفْس والاغترار لقلّة تأدُّبهم بالشُّيوخ الكامِلِين الْمُكَمَّلين من السَّلَف فتوهّموا أنّ النَّفْس لمّا فنيت هَلَكَت بالكلية وانعدمت من أصلها وليس كذلك، بل هو عدم شعور بها وإلّا فهي باقيةٌ في الباطن، فلا بُدّ من سياستها فلا يخليها عن ما ذكرنا إلّا لفائدةٍ تقوم مقامه كما قال الجنيد نَفَعَ الله به لأصحابه: لو علِمْتُ أنّ صلاةَ ركعتين أفضل لي من الجلوس معكم ما جلستُ عندكم، فالجُلوس إنّما يَحسُن بقدر ما يفيد الإرشاد الذي هو أفضل من النَّوافِل، «لئن يهدي الله بك رجُلًا واحدًا خيرٌ لك من حُمْرِ النّعَمْ[1]». قاله ﷺ لعلي كرَّم الله وَجهَه، فإذا لم يكن للإرشاد فلا معنى له.

الفترة وكيفية التعامل معها:

وإذا كان كذلك فإذا رأى الفضل في الخلوة لكون الجلوة للفضول تَخَلَّى، وإذا رأى الفضل في الجُلُوس لكونه للإرشاد يجلس مع الأصحاب الذين هم إخوانه في الطريق، وإذا رأى الفضل في الخلوة والجلوة فتكون الجلوة حاميةً للخلوة عن الملل لإفادتها نشاطًا يعود به إلى الخلوة على أكمل ما يكون من الشَّوق إليها، وخلوته مزيدًا لجلوته أي لفائدة الجلوة من الإرشاد لاستصحاب نور الخلوة وفي هذا سرٌّ، وذلك أن الآدمي ذو تركيب

---

(١) حمر النعم: هي الإبل ذات اللون الأحمر وكانت أنفس الأموال عند العرب .

والحديث أخرجه البخاري (٣٠٠٩) في كتاب الجهاد والسير باب فضل من أسلم على يديه رجل، ومسلم في (٢٤٠٦) في كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

مختلف فيه تَضَادّ وَتَغَايُر، ولما فيه من التَّغايُر له حَظٌّ من الفُتور عن الصَّبْر على صَرْفِ الحَقّ، ولهذا كان لكلّ عاملٍ فَتْرَةً ظاهرةً أو باطنةً، وذلك لأنّ الفَتْرَة قد تكون في صورة العمل فلا يعمل أصلًا، وقد تكون في عدم الرُّوح إلى التلذُّذ بالعمل، وإن لم تقع فترة في صورة العمل فيعمل بلا تلذُّذ وإذا كان لا بُدّ من الفترة فالقاصِر يُضيعها بالكُلِّيّة بحيث لا يكون له ولا لغيره فيها حَظٌّ من العِبَادة ويجعلها استرواحًا للنَّفْس وركونًا إلى البَطَالَة، فتصير النَّفْس بذلك ثقيلةً جامحةً ميّالَةً إلى الشَّرّ غير راغبةٍ للخلوة مرَّةً أخرى كأنها قد أنقذت من النّار فتكره العَود إليها.

تصرف الكامل حال الفترة:

والكامل لما رأى في صرف الفترة إلى الاسترواح والرُّكون إلى البطالة هذه الإفادة العظيمة احترس عنها كلّ الاحتراس، فمن بلغ رُتْبَة المَشْيَخَة من الكَمال انصرف قسم فترته إلى إرشاد الخَلْق فأفلح الخَلْق بقَسْمِ فَتْرَتِهِ وكَفى بذلك عبادة، فما ضياع قَسْمُ فَتْرَتِهِ كضياعه في حَقّ القاصِر حتى يصير سببًا لقوّة نفسه، وإذا كان الضَّياع سببًا لقوّة النَّفْس فالمريد القاصِر يعود إلى الإقبال على الله تعالى في الخلوة من الفترة مع قوّة شَرَه النَّفْس وَحدَّةِ طلبها لهواها، والشَّيْخ الكامل يكتسِب بِقَسْمِ فَتْرَتِهِ فضيلةٌ لنفسه مِنْ نفع الخَلْق، فيعود إلى الإقبال على الله تعالى في إطار خلوته المستفيضة خاص حاله بنفسٍ مُشْرئِبَّة أي ميالة إليه باكتساب فضيلة النَّفع فلم يحصل لها شَرَه وطَلَب هَوَى، بل يكون مُشْرئبًا به أكثر من اشْرِئْبَابِ المريد عند عوده من الفترة إلى الخلوة، وإن كان مع حدّة إرادته، لأنّ إرادتها عَارَضَهَا الشَّرَهُ وطلب الهَوَى.

وإذا كان اشرِئباب الشَّيخ أكثر فهو يعود من الخلق إلى الخلوة مُنْتَزع الفتور بقلب متعطشٍ وَافِرِ النُّور وروحٍ مُتَخَلِّصٍ عن مضيق الأغيار قادمٍ بخدمة شغفه إلى دار القرار وهو رؤية إطلاق الحَقّ في خلوة. انتهى.

وإلى بعض ما فيه يشير قول الإمام الغزالي نَفَعَ الله به: لما كانت العبادة سببًا للنجاة وكانت الطِّباع مجبولة على السآمة شرعت الأوراد المختلفة ليحصل بالتنقُّل نفي السآمة. انتهى.

ومثله قول الشَّيخ محيي الدين ابن عربي نفَعَ الله به: القرآن لا يسأم قارئه لاختلاف المعاني الواردة فيه. انتهى.

خلوة أرباب البصائر:

وما أحسن قول بعض العارفين نَفَعَ الله بهم وهو فيه معنى التخطيط على الخلوة: النَّاس يقولون: افتحوا أعينكم وأبصِروا العِبَرَ والآثار لتَعْبُرُوا عنها إلى المؤثِّر، وأنا أقول أغمضوا أعينكم عنها لأنّها ربّما تشغلكم بها عن المؤثِّر، وأبصروا المؤثِّر بنفسه بلا واسطة العبور من العبور والآثار إليه، فإذا كان بالآثار فرؤيتها في النَّفْس أكمل من رؤيتها في الآفاق، ولهذا أخَّرها الله تعالى في القرآن. قال الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣]. وَمِنْ ثَمّ قال بعض أهل المعرفة نَفَعَ الله بهم: لله عباد طُوْر سيناهم -أي معراجهم- الموصل لهم إلى ما يقرب من درجات النبوّة رُكَبهم التي يضعون رؤوسهم عليها مراقبين إذ تكون رؤوسهم على رُكَبِهم وهم في محلّات القرب يطلبون الزِّيادة فيها، فَمَنْ نَبَعَ له ماء معين حياة القرب في ظُلْمة خلوته الحاجبة له عن المحسوسات فماذا يصنع بدخول

الظّلمات التي دخلها الخضر عليه السلام لطلبه وظلمات السفر لا تزيد عليها في إفادته.

ومن اندرجت له أطباق السَّماوات في طَيِّ شهوده للحَقّ الجامع للكُلّ ماذا يصنع بتقلُّبِ طرفِهِ في السَّماوات وقد حَصَلَ له ذلك مع زيادة غير متناهية من غير تقلُّب، ومن جَمَعَتْ أخلاق بصيرته متفرِّقات الكائنات في مقام الحَضْرة ماذا يستفيد من طَيِّ الفلوات، وإدراك البصيرة أجمع وأصدق من إدراك البصر، لأنّ بالبصر إنّما يُدْرِكُ ما يلتفت إليه وكثيرًا ما يخطئ. انتهى.

وبه يظهر لك سرُّ شغل الطريقة النقشبندية ومِنْ ثَمَّ قالوا: إنها أقرب الطُّرُق إلى الله تعالى كما صرّحنا بذلك في رِسَالتِنا في هذه الطَّريقة وهي المُسَمَّاة: (إتحاف الخليل في المشرب الجليل الجميل).

الشيطان قاطع طريق:

واعلم أيُّها الطَّالب الرَّاغب أنّ الشيطان قد يجيء لك في خلوتك ونحوها من محلّات عبادتك ويقول لك: أنت مرائي في عملك، ليقطعك بذلك عن العمل فَقُل له كما قال بعض أهل المعرفة نَفَعَ الله بهم: العامِل المرائي خيرٌ من المُخْلِصِ البَطَّال.

فإنَّ العمل إذا استمرَّ لا بُدَّ له من نُورٍ يَرده في لحظة إلى الإخلاص، وأمّا إن قصدتَ نفي خطرته بإثبات الحجّة على إبطالها فذلك ممّا يزيدها تمكينًا في النَّفْس لسبقها وقيام صورتها في الخيال، وبذلك يظهر لك أن دفعها إنّما هو لتسليمها والتلهّي عنها بضدِّهَا عندما تبدو، ومن ثَمَّ قال

سفيان[1] رضي الله عنه: إذا جاءك الشَّيْطان في الصَّلاة فقال لك: أنت مرائي. فزده طُوْلًا، وقال عليه السلام: الحمد لله الذي رَدَّ كيده إلى الوَسْوَسة، ويُقال الشيطان كالكَلْب إذا اشتغلت بمقاومته مَزَّقَ الإهاب[2] وقَطعَ الثِّياب، فإذا رجعت إلى رَبِّهِ[3] صَرَفَهُ عَنْكَ بِرِفْق.

وقد جاء الشيطان لبعض العارفين نَفَعَ الله بهم في ليلةٍ في بعض الصَّلَوات وقال له: أنت مرائي، قال ذلك العارف: فَعَارَضْتُه بوجوهٍ فلم يرجع حتى فَتَحَ الله بتسليم دعواه وطَرْدِهَا في كُلِّ أعمالي بحيث قلت: إثبات الرِّياء في هذه إثبات للإخلاص في غيرها وكُلُّ أعمالي معيبة، وهذا غاية المقدور فانصرَفَ عنِّي في ذلك الوقت. والحمد لله.

الحكمة في إجراء الخوارق:

واعلم أيُّها الطَّالب الرَّاغب أنّ الله قد يُكَاشِفُ بالحقائق ويعطي الخَوارِق قومًا لتقوية يقينهم فينتفعون بها إذا قبلوها بأدب ولم يقفوا عندها وخافوا المَكْر والاستدراج بِسَبَبِها ولم يَتَكَبَّروا بذلك على مَن لم يُعطَاها، فإنّه قد يكون فَوْقَ هؤلاء مَنْ لا يكون له شيء من مُكاشَفَة الحَقائق ومُباشَرة الخَوارِق، لأنّ هذه كُلّها تَقْوِيَة ليقين السَّالك في رَبِّهِ، بواسطتها بشرط أن لا تحجبه ولا تقطعه عنه.

---

[1] أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، كان إمامًا في علم الحديث وغيره من العلوم، ولد في الكوفة سنة ٩٧هـ وتوفي بالبصرة سنة ١٦١هـ، وله كتاب الجامع الكبير وكتاب الجامع الصغير، كلاهما في الحديث، وكتاب الفرائض. الذهبي: سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٢٩ – ٢٧٩، الصفدي: الوافي بالوفيات ١٥: ٢٧٨، الشعراني: الطبقات الكبرى ١: ٤٧، الزركلي: الأعلام ٣: ١٠٤.

[2] الإهاب: الجِلْد من البقر والغنم ما لم يُدبغ. لسان العرب، مادة: أهب.

[3] أي صاحبه ومالكه.

ومَنْ مُنِحَ صَرْفَ اليَقِين في رَبِّه فلا حاجةَ له إلى شيء ممَّا ذُكِرَ، أمّا الحَقَائِق فلأنَّها لا تحجبه بنفسها، وأمّا الخَوَارِق فلأنها تقطعه عن رَبِّه، فإنْ لَمْ تَضُرُّه شيئًا فلا تُفِيده أيضًا إلّا إذا صار في مقامٍ لا يحجبه شيء عن شيءٍ وذلك في مقام تجوهر نور الذِّكر أو التِّلاوة اللَّذَيْن تقدَّم ذكرهما، فإنّ البالغ هذا المقام يُكاشِفُ الحَقّ مع صفاته التي من جُمْلَتِها عِلمِه وقُدْرَتِه، فيعلمه بعلمه ويقدره بقدرته وإلى هذا يشير قول الإمام الغزالي نَفَعَ الله به: الأحوال والمُكَاشَفات حاضرةٌ معك في قلبك، وأنت مشغول عنها بعلائقك وشهواتك، فصار ذلك حِجَابًا بينك وبينها، فلا يحتاج إلّا أن تكسر الشّقّ وتَرفَع الحِجَاب فتُشْرِق أنوار المَعارِف من باطِنِ القَلْب.

وقال الإمام العيدروس نَفَعَ الله به: ما حَجَبَ عَيْنَ قلبك عن إدراكِها سِواكَ، ومتى تَلَاشَتْ ظُلُماتك عنه تَجَلَّى له من لم يزل قاطنًا به في غيوب الأزل. انتهى.

من آداب المريد:

وأنتَ قد علمتَ أيُّها الطَّالب ممّا قدَّمْناه أنّ موت القَلْب من شهوات النَّفْس، وأنّ السَّالك كلَّما رَفَضَ شَهوةً من شَهَواتِ النَّفْس نالَ القَلْب من الحياة بقسطها، واعلم أيُّها الطَّالب الرَّاغب أنّ مِنْ آداب المريد مع شيخه أن لا يستقلّ بواقعته وكشفه دون مراجعة شيخه لأنه لضيق علمه لا يقدر على دفع ما اشتبه عليه، فلا يعلم أنه من عند الله أو من عند نفسه، فإذا راجع الشيخ عَلَّمَهُ الشَّيْخ الواقعة، فإن الشَّيْخَ عِلْمُهُ أوسع، فإن لم يعلِّمه في الحال رجع إلى الله تعالى، إذ باب الشَّيخ المفتوح إلى الله تعالى أكبر فإن كان واقعة المريد من الله تعالى وافقه الشَّيْخ عليها وأمضاها وإن كان في واقعته - لكونها

من نفسه - شبهة تشتبه بها الواقعة التي مِنْ عند الله تعالى تزول هذه الشبهة بطريق مراجعة الشيخ، فإنه يعرف الفرق بين ما هو من النَّفْس وبين ما هو من عند الله، ويكتسب المريدُ بتعريف الشيخ له عِلْمًا بصِحَّةِ الوقائع والكُشُوف في المستقبل، ولا يَعْلَمُ ذلك الآن لضيق عِلْمِهِ، فالمريد لعلَّهُ في واقعته تخالطه إرادةٌ كامنةٌ في نفسه فتشتبه تلك الإرادة الكامنة بالكشف الصحيح سواء كان في المَنام أم في اليَقَظة.

ولهذا الاشتباه سرٌّ عجيبٌ. وذلك أنّ النَّفْس عند غَلَبَة إرادة شيء عليها تستخرج الصُّوَر الخياليّة وتجعلها كالحاصلة عند المريد لشدَّة شَغَفِها بمطالِبِها، وهذا في المنام كثيرٌ، وقد يقع في اليَقَظة إذا غَلَبَتْ على النَّفْس شِدّة الشَّغف بذلك الأمر واستغرقت فيه.

تداخل الأحوال والمقامات:

وممَّا ينبغي أن تعرفه أيُّها الطَّالب الرَّاغب تَدَاخُلَ الأحوال والمَقامات، وهو إنه ما يتم للسَّالك مقام إلّا بنازل حال ممّا قبله، فلا يوجد مَقام إلّا قبل سابقة حال، وذلك مثلًا مثل حال الرِّضَى، فإنّه ابتهاج القَلْب بكُلّ حلو ومُرٍّ، ولا يَزَال يتردَّد نازل ذلك الحال وهو رؤية كمال أفعال الحَقّ ورحمته، ثُمّ يُعَارِض طَبْع النَّفْس إلى خِلافِها عند مُخَالفَة هَواهَا حتى تُدركَ السَّالكَ معونةُ الله تعالى فيظهر على الرِّضا ويصير ذلك مقامه، فالسَّالك بالأحوال يرتقي إلى المَقَامات فالأحوال لكونها مواهب حقانية صارت أسبابًا لفعل الحَقّ في ترك السَّالك بالأحوال إلى المقامات، إذ يصِحّ كون بعض أفعال الحَقّ سببًا للبعض، كالتمريض للإماتة وإنزال المَطَر لإنبات الشَّجَر وكالاسترسال في المَعاصي يترتَّب عليه الانتقام والتَّعْذِيب، وإن كان الكُلّ لله بالخِلْقَةِ وأفعاله تعالى غير مُعَلَّلَةٌ لكن بعضها علامات للبعض الآخر، كما أنّ الصِّحّة علامةٌ للبقاء.

كمال مقام السالك:

وكذلك لا يَكْمُلُ مقام السَّالك الذي فيه إلّا بنازل حالٍ من المقام الذي فوقه، لأنّ الأحوال المستقبلة أسباب لاستقرار المَقامات السَّابقة، فلا يَسْتَقِرّ مقام استقراره الكامل إلّا بنازل حال ممّا فوقه، وذلك أنّ السَّالك يُعْطَى في مقامه حالًا من المقام الأعلى الذي سوف يرتقي إليه، فبوجدان ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذي هو فيه، ويجوز أن يتحقّق مقام وجود داعية الطّبع إلى خلافه، مثلًا: مقام الرِّضا يثبت ويحكم ببقائه مع داعية الطَّبع وذلك مثل كراهة يجدها الرَّاضي بحكم الطَّبع ولكن علمه بمقام الرِّضا يغمر حكم الطَّبع وظُهُور حكم الطَّبع في وجود الكراهة المَغْلُوبة بالعِلم لا يخرجه عن مقام الرِّضا، لأنّ الحكم للغالب والمغلوب كالعدم.

لكن ظُهُور حكم الطبع في وجود الكراهية يفقد حال الرِّضا، وذلك لأنّ الحال لا يكون مع النَّفس ولا يجامعها أصلًا كالدّهن لا يمتزج بالماء، بل يكون فوق الماء، فكذا الحال لا يكون ساترًا للنَّفس، فإذا ظَهَرَت النَّفْس زال، وإنْ لم تظهر فلا سبب يوجِب زوال الحال، ولذلك سُمّي حالًا لتحوُّلِه وزَوَاله، كما يسمّى المقام مقامًا لثبوته واستقراره.

طريق العثور على المرشد الكامل:

نعم، من الأحوال ما لا يكون مقامًا أصلًا، فإن قلت: المرشد الكامل المُكَمِّل الذي دللتني عليه أوّلًا. فأين أجده حتى أسلك على يديه؟

فالجواب: من جَدَّ وَجَد ومَنْ لَجّ ولَجْ ولو تَطَلَّبْتَه تَطَلُّبكَ الماء البارد عند العَطَش وتَطَلُّبَ الأم الشّفيقة إذا فَقَدَت وَلَدها لوَجدته، وعلى تقدير عدم وجدانه لعدم رؤيتك إيّاه لا لعدمه كما قال أستاذنا العلّامة الوجيه

عبد الرَّحمن بن الإمام شَيْخ مَشَايخي عبد الله بن أحمد بلفقيه علوي نَفَع الله بهم في تائيته شعرًا:

وما قَلَّ أهلُ النُّورِ والفَضْلِ والصَّفا ولكنَّها قَلَّت عُيُــونُ البَصِيــرة

فقد كان سَيِّدي الأستاذ أبو العبّاس أحمد بن عقبة الحضرمي[1] تلميذ العيدروس نَفَعَ الله بهم يقول: وعليك بدوام الذِّكر وكَثْرة الصَّلاة على رسول الله ﷺ فهي سلّم ومعراج إذا لم يَلْقَ الطَّالب شيخًا مُرْشِدًا. انتهى.

وصايا أحمد بن موسى المشرع:

وكذلك قال سَيِّدي الأستاذ أحمد بن موسى المشرع[2] نَفَعَ الله بهما: مَن لا شَيْخَ لَهُ يرَبِّيه ويرقيه ويوصِله إلى الله تعالى فليلزم الصَّلاة على النَّبي ﷺ فهي تُرَبِّيه بأحسن الآداب النبويَّة وتُهَذِّبُه بأشرف الأخلاق المحمديَّة وتُرَقِّيه إلى أعلى ذروة الكَمَال وتُوصِله إلى المَحَلّ الأسنى من حضرة الكبير المُتعال، وتُنَعِّمَهُ برؤية الله وقربه مع النَّبي ﷺ، وكان يوصي أصحابه بقراءة ﴿ **قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ [الإخلاص: ١] وبكثرة الصَّلاة على النَّبي ﷺ وكان يقول: بقراءة ﴿ **قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ عرفتُ الله الواحد الأحد، وبِكَثْرة الصَّلاة على رسول الله ﷺ صحبتهُ ﷺ، وكان يقول: مَنْ أكثَر الصَّلاة على رسول الله ﷺ رآه منامًا ويقظة. انتهى.

---

(١) أحمد بن عقبة الحضرمي المكي: عالم زاهد، نزل القاهرة فأقبل عليه أهل مصر، وأخذ عنه الأكابر، وهو شيخ الشيخ أحمد زَرُّوق. له مؤلفات كثيرة منها كتاب «صدور الترتيب»، وبقي مقيمًا في القاهرة حتى وفاته سنة ٨٩٥هـ. المناوي: الطبقات الكبرى ٣: ١٣٨- ١٤١، السخاوي: الضوء اللامع ٢: ٥.

(٢) هو الشيخ أبو القاسم الجنيد أحمد بن موسى المشرع عجيل، انقطع للمجاورة بالحرمين الشريفين، توفي بمكة المكرمة سنة ٩١٧هـ ودُفن بمقبرة المعلاة. العيدروس: النور السافر ١٤٣- ١٤٤.

ما يخاف منه على السالك:

فاعمل على ذلك ترشد، واعلم أنّ مِنْ أخوف ما يخاف منه على السَّالك ما نبَّه عليه الإمام الغَزالي وغيره من العارفين نَفَعَ الله بهم، وهذا ما قاله الغَزَالي نَفَعَ الله به: إنّ لله سبحانه وتعالى سبعين حجابًا من نور لا يصل السَّالك إلى حِجَاب منها في الطَّريق إلّا ظَنَّ أنّه وَصَل، وأوّل حِجَاب بَيْنَ الله وبَيْنَ العَبْد القَلْب، فإنّه أمْرٌ ربّانيٌّ وهو نورٌ من نُور الله، وهو الذي تتجلَّى فيه حقيقة الحَقّ كلِّه حتى إنَّه يتَّسِع لجملة العالم ويحيط به وتتجلَّى فيه صورة الكُلِّ، وعند ذلك يُشْرِق نوره إشراقًا عظيمًا إذ يظهر فيه الوجود كلُّه على ما هو عليه، فإذا تَجَلَّى نوره وانكَشَفَ جمالُ القَلْب ربَّما التَفَتَ صَاحِب القَلْب إلى القَلْب فيَرى من جَمَالِه الفائِق ما يُدْهِشُه، فَرُبَّما سَبَقَ لِسَانُه في هذه الدَّهْشَة فيقول: أنا الحَقّ.

فإنْ لم يتَّضِح له ما وراء ذلك اغترَّ به ووقف عليه وهلك وكأنّه اغترّ بكوكب صغيرٍ من أنوار الحَضْرة الإلهية ولم يَصِلْ إلى القَمَر فضلًا عن الشَّمس فهو مغرور، وهذا هو محلّ الالتباس إذ المتجلِّي يلتبس بالمتجلَّى فيه كما يلتبس نور ما يترائى في المرآة فَيَظُنّ أنّه نور المرآة وكما يلتبس في الزُّجاج بالزُّجاج، وبهذه العَيْن نظرت النّصارى إلى المَسِيح عليه السَّلام، فرأوا إشراق نور الله قد تلألأ فيه فَغَلِطوا فيه كَمَنْ يرى كوكبًا في مرآة أو في ماء، يَظُنّ أنّ الكواكب في المرآة أو في الماء فَيَمُدّ إليه يَدَه ليأخُذَه وهو مغرور. انتهى.

وقد ذكروا أن بعض المَشَايِخ عبد روحه ثلاثين سنة لما رأى من إشراقها فظنَّها الحَقّ، ثُمّ جَذَبَتْه يَدُ العِنَاية فَرَجَعَ إلى الله الذي أنقَذَه من هذه الوَرْطة الخَطِرة عَصَمَنا الله من كُلّ ما يبعد عنه بمحضِ فضله. آمين.

وفي شرحنا (الفتح المبين من أنفاس العيدروس فخر الدِّين) زيادة على ما هنا فراجعه فإنّه ينفعك والله واسع عليم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

وإذْ وَقَعَ لنا فيما تقدَّم ذِكْر تجلِّيات الأفعال والصِّفات والذَّات إجمالًا، فلنتعرَّض هنا لبعض خواصّ تلك التجلِّيات ليكون السَّالك فيها على بَيِّنة من أمر ربِّه.

التجلي بطريق الأفعال:

فنقول: اعلم أنّ التَّجَلِّي بطريق الأفعال رتبة في القُرب فوق مراتب عامّة الصَّالِحِين، وفيه يظهر تجريد الفِعْل عن الأسباب، لأنه إذا صَحّ التوحيد تلاشت الأسباب في عين الأسباب، أي تلاشى النَّظَر إلى كونها أسبابًا مع وجودها كما قال الجَدّ القطب الشَّريف علي زين العابدين العيدروس[1] نَفَعَ الله به لبعض تلاميذه: ولا تنظر يا عمر في الأفعال إلّا الفَعَّال، وَغِب به عن صَلَاح المآل والحَال.

وفي ذلك الإشارة إلى أنّ الأسباب ليست وسائط يتوقَّف عليها الفعل الإلهي بل يفعل عندها لا بها، وأحسن ما قال بعض العارفين نَفَعَ به شعرًا.

إذا ما غبت عن حين وأين وفي مرآتك اتحد الوجود

---

[1] الشيخ علي زين العابدين بن عبد الله بن شيخ ابن الشيخ عبد الله العيدروس، ولد بتريم في سنة ٩٨٤هـ، وحفظ القرآن العظيم وكان سريع الحفظ حسن الكلام نشأ في حجر والده ولازمه ليل نهار حتى برع في العلوم في حداثة سنّه، وأخذ عنه العلوم الشرعية من تفسير وفقه وحديث وعلم التصوف والحقائق، وأخذ عن جماعة غيره من العلماء، توفي بتريم سنة ١٠٤١هـ. الشلي: المشرع الروي ٢: ٢٢١- ٢٢٧.

رأيـت مسـبِّبَ الأسـباب فيهـا يسـببها ويفعـل مـا يريـد
وتشـهَده خَيَـالًا حـينَ تقـري لأنفسـها فيفنيـك الشُّـهُود
ويُبْقِيكَ التَّجَلِّـي كُـلّ حيـن لأنّـك دائـم خلـقٌ جديـد

وفي هذه الأبيات الإشارة إلى أنّ عالَم القدرة أيضًا لا يخلو عن الأسباب إلّا أنّ الأسباب فيه خَفِيَّةٌ بخلاف عالَم الحكمة.

والعارِف الكامل المجرَّد لدى فعل الله لا يُبَالي بالأسباب ظاهرة أو باطنة، لأنّه يرى الحَقّ فاعلًا في كُلِّ فِعلٍ لا غيره، ويظهر له حكمته البالغة في جزئيّات الأفعال وكلياتها حتى يتحقّق أنّه لا قبح في شيء منها بالنِّسبة إليه تعالى، فإن كان فيها شيء من ذلك فهو بالنسبة إلى غيره من المَظاهر لكونها علامة القَهر والجَلَال والتَّجَلِّي بطريق الأفعال يحدث صَفْو الرِّضا، لأنّه يرى في الأشياء كَمال الحِكْمة الإلهيَّة، ويحدث التَّسليم لئلّا يكون معترضًا على الله تعالى، وهذا لا ينافي النَّهي عن المُنْكَر ولا يُنَافي عدم الرِّضا بالكُفْر والمَعاصي ولا يُنَافي عدم التَّسليم لفاعِلِها، لأنه يرضى بها من حيث إنّها من الله تعالى لا من حيث إنّها صارت من نفسه أو من غيره، كما أنّ من قَتَل عَدُوّ شَخْص وكان عَدُوًّا لِعَدُوِّه أيضًا يرضى بقَتْلِه من حيث إنه أهلَكَ عدوَّه، ولا يَرضَى به لأنّه تقوَّى بِهَلاكِه العَدُوّ الآخر الذي كان المقتول أيضًا عدُوّه أيضًا، وكما يرتضي الدَّواء المُرُّ من حيث إنَّه يزيل مَرَضَه ولا يَرتَضِيه من حيث المَرارة التي يَنْفِرُ عنها الطَّبع.

والتَّجَلِّي بطريق الصِّفات يُكْسِبُ الهَيْبة في تَجَلِّي الجَلَال، والأُنس في تَجَلِّي الجَمَال، والتَّجَلِّي بالذَّات يُكْسِبُ الفَناء إذا رأى فناء الكُلِّ في الواحد، والبقاء إذا رأى قيام الكُلِّ بالواحد موجودًا به.

الفناء:

ولفظ الفَنَاء في اصطلاح العارفين نَفَعَ الله بهم مُشْتَرك، فقد يُطْلِقُونَه على تَرك الاختيار عندَ الوقوف مع مجرّد فعل الله لما فيه من فناء الإرادة والهَوَى أيضًا للزومه فناء الإرادة، لأنّ الإرادة ألطَف أقسام الهَوَى، فإنّه لو لم يُحبْ لنفسه ما اختار الشيء ولا رجَّحَه على غيره، لكن هذا الفَنَاء هو الفَنَاء الظَّاهِر، لأنّ الإرادة محلّها القَلْب وهو من الأمور الظَّاهِرة بالنِّسبة إلى الرُّوح، وأمّا الفَنَاء الباطن فهو محو آثار الوُجُود التي هي الرُّوح والقَلْب والنَّفْس عندَ لـمَعَان نـور الشُّهود بأن تَنْمَحي نورانيّتها في نور الظَّاهِر عليها كانمِحَاء نور الكَواكِب عند طُلُوع الشَّمس، وذلك يكون في تجلِّي الذَّات.

كما أنّ الفَنَاء الظَّاهر في تَجَلِّي الأفعال وتَجَلِّي الذَّات أكمل أقسام اليَقِين في الدُّنيا، فيكون بالبصيرة لا بالبَصَر، وأمّا تَجَلِّي حكم الذَّات بالبَصَر فلا يكون لِغَيْر نبيِّنا ﷺ إلّا في الدَّار الآخِرة وهو المَقَام الذي حَظِيَ به رسول الله ﷺ ليلة المِعْراج مع كونه في الدُّنيا لاتِّصَافِهِ ﷺ بِصِفات أهل الآخِرة لغَلَبَة النُّورانيّة على ظاهِرِه، ولهذا لم يَكُنْ له ظِلّ ﷺ، وكذلك التَّجَلِّي الوَصْفي والفِعْلي كالتَّجَلِّي الذَّاتي - أعني ليس المُراد من الكُلّ رؤية البَصَر بل رؤيَة الحَظّ من اليَقِين الكائن من رؤية البَصِيرة - فافهم.

وعلى ذكر كونه ﷺ ليس له ظِلّ فَرَحِمَ الله صاحِبنا الشَّيْخ عمر عقيل المَكِّي حيث قال شعرًا:

دخل العالم فـي ظـل الـذي ... ما لـه ظِلّ وللأغْيَار يَمْحُـو

مقام الفناء:

واعلم أنّ مقام الفَنَاء في الصِّفات هو مقام نتيجة قرب النّوافل، ومقام الفَنَاء في الذَّات هو مقام نتيجة قرب الفَرائِض كما هو مصرَّح به في كلامهم.

تنبيه مفيد: اعلم أنّ ما يُشْكَلُ على الأفهام قول سَيِّدي زيد بن أسلم[١] نَفَعَ الله به: أنّ الله عَزَّ وجَلّ لَيُحِبُّ العَبْدَ حتّى يبلغ من محَبَّتِه أن يقول له اصْنَع ما شِئْتَ فقد غَفَرتُ لك. وقول سَيِّدي الشَّـرِيف الأسـتاذ أبي الحَسَن الشَّاذِلي[٢] نَفَعَ الله به: يبلغ الوَليّ مبلغًا يُقال له: أصحبناك السَّلامة ورفَعْنا عنك الملامة، وهذا الكلام قد اشتبه على كثير من العَوَامّ، فَظَنُّوا أنّ الشَّخْصَ إذا وَصَل إلى مقام المحَبَّة والخِلَّة لم يَضُرّه ذَنْب وليس الأمر كذلك، بل المُراد أنّ الشَّخْص إذا تخلَّق بأخلاق الله وَصَل إلى مَقَام يُقال له (مَقام تَصْرِيف القُدْرة) وأيضًا يسمَّى مَقَام (كُن فَيَكُون) كما قال الشَّريف الأستاذ علوي[٣] بن الفقيه المقدَّم نَفَعَ الله بهما لتحقُّقِه بهذا المقام: أقول للشيء كُنْ فَيَكُون بإذن الله تعالى.. وكما قال العيدروس عن رَبِّه أنّه قال له: افعل ما شِئْتَ فَقَد غَفَرْتُ لَك، وحينئذٍ فَيُقَال له: اصنع ما شِئْتَ

---

(١) الإمام أبو عبد الله زيد بن أسلم العدوي العمري المدني، فقيه ومفسر، وكان ثقة كثير الحديث، وكانت له حلقة للعلم في مسجد رسول الله ﷺ، توفي سنة ١٣٦هـ. الذهبي: سير أعلام النبلاء ٥: ٣١٦، الزركلي: الأعلام ٣: ٥٦.

(٢) الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي، ينتهي نسبه إلى الحَسَن ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ ولد ببلاد المغرب وشاذلة قرية من إفريقية، حجّ مرات ومات بصحراء عيذاب قاصدًا الحج فدفن هناك في ذي القعدة سنة ٦٥٦هـ . الشعراني: الطبقات الكبرى ٢: ٤.

(٣) السيد الشيخ علوي بن الفقيه المقدّم، ولد بتريم ونشأ بنظر أبيه وتربى به وأخذ عنه العلوم والمعارف. توفي سنة (٦٠٩هـ) وقبره معروف بزنبل شرقي قبر أبيه. الحبشي: عقد اليواقيت ٢: ١٢٤.

لأنّك وصَلْتَ إلى هذا المَقام ولأنّك موضوع عنك وزرَك وثقل وجودك ومحو عنك وَهْمَ آنِيَّتِكَ فحالك يناسب هذا التَّشْريف وهذه الخصوصيّة لا ما يَظُنُّه العَوَامّ المنهمكون في الشَّهَوات المتَّصِفُونَ بحظوظ النَّفْس، بل قال سَيِّدي يوسف ابن أسباط[1] نَفَعَ الله به: يُطِيعُ الله كُلُّ أحَدٍ ويعصيه إلَّا المُحِبُّ.. وقال الأستاذ أبو الحَسَن الشاذلي نَفَعَ الله به: أبَتِ المَحَبَّةُ أن تستعمل مُحِبًّا إلّا فيما يوافق محبوبه. انتهى.

قلت: وكأنِّي بمعتَرِضٍ من الأنام قد فوق إلي سهام المَلَام، وقال: قد أطال صاحب هذه التَّعْلِيقة في هذا المَرَام الكلام، وكأنّه لم يَعْرِف المناسَبة الحاملة لي على إثبات هذه الفوائد العِظَام، أي ما يدري أن لفظ سالك يجر جميع ذلك، أو كُلّ ما ذكر يحتاج إلى التَّنْبيه عليه طالب سلوك طريق الحَقّ لئَلّا يقع فيزل أو يتزندق، هذا ولعمري إن ما تركنا التنبيه عليه أكثر والعارف المحقق النحرير بذلك أخبر، ولكن بما ذكرناه من لوائح الإشارات يتدرّج السَّالك إلى ما تركناه من صريح العبارات، وعلى كُلِّ حال فالأعمال بالنيَّات والله العالِمِ بخافي الطويات.

أسباب خشية العلماء:

وأمّا قوله في النَّظم (فاعلمه واعمل)[2]، ففيه إشارة خَفِيَّة إلى إنكار إطلاق العِلْم على المخل بالتَّقْوى، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ** ﴾ [فاطر: ٢٨]. أي لا يخشى الله من عباده إلّا العلماء به، وذلك لمعرفتهم بأنواع مَكْرِهِ تعالى وعدم مبالاته بإهلاك العالَمَ كُلّه، قال الله تعالى:

---

[1] يوسف بن أسباط: أحد الصوفية الزهاد العباد، من أهل القرن الثاني الهجري توفي بعد سنة ١٩٠هـ. الشعراني: الطبقات الكبرى ١: ٦١- ٦٢.

[2] أي في الأبيات المتقدمة التي نظم فيها أنواع الخواطر.

﴿فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧] ولمعرفتهم أيضًا ورؤيتهم الحكمة والصَّواب في الانتقام من أهل المعاصي.

وإنّما ذكر بكلمة (إنّما) لِيَدلّ بلفظه على انتفاء الخشية من غير العلماء، وبفحواه على انتفاء العلم ممَّن لا يَخْشَى، لأنّ العلم سبب ولا يتخَلَّف السَّبب عن المُسَبِّب، فالخَشْيَة من لَوازِم العِلْم فينتفي العِلْم عمَّن لا يَخْشى الله تعالى لانتفاء المَلزُوم بانتفاء اللَّازِم.

تقول مثلًا: إنّما يدخل الدَّار بغدادي، فينتفي دخول غير البَغْدادي الدَّار، ولا يلزم منه كون غير الدّاخل ليس ببَغْدادي، إلّا أنّه يدُلّ على كَوْنِه بغداديًّا سببًا لإجازَتِه لدُخُول الدَّار، فينتفي كَوْن الشَّخْص بغداديًا بانتفاء هذه الإجازة، وليس كونه بغداديًا سببًا لدخول الدَّار حتى ينتفي كونه بغداديًّا بعدم دخوله الدَّار. فافهم فإنّه مزلَّة قَدَم.

الزهد والتقوى مفتاح الطريق:

فظَهَر من فَحْوَى هذه الآية أنّ الطّريق مَسْدُود عن انصباب المَعارف التي هي علوم الحَقائق الموجودات من ذات الواجب وصفاته وسائر الوجودات، ومسدودة أيضًا عن مَقامات القُرب التي هي الأخلاق والأعمال إلّا بالزهد والتّقوى عن محبّة الدُّنيا وعن محبّة المكاره والفضول وعن محبّة النَّفْس وصِفاتِها فإنّها حينئذٍ تفتح الطريق ويكون طالبها من أولئك الفريق، وذلك أنّ أدنى معصية تكون حجابًا عن القَلْب حتّى تمنَعه الصَّفاء عندَ ذِكر الله ونَحوه من الأعمال الصَّالحة، فيكون منعًا من مواطئة الباطن الظّاهِر ولو بوجهٍ ما وذلك نفاق في طريق الخَواصّ.

وذلك لأنّ القَلْبَ في غايةِ الرِّقّةِ واللَّطافةِ كالمرآة الصّقيلة تتكدّر بأدنى نفس وماء، وبصفاء التّقوى وكمال الزُّهد يتصقّل القَلْب ويصير العَبْد راسخًا في العِلْم، وغاية ذلك أنّه يطلع على ما أراده الله تعالى من خطابه في كتابه العزيز من العُلُوم الغَيْر المتناهية التي لأجلها لا تنحصر عجائب القرآن ولا يخلق بكثرةِ الرَّدِّ.

علوم القرآن وفهومه:

وقد نقل الإمام الغزالي نفع الله به في الإحياء عن بعض السَّلَف نَفَعَ الله بهم: إنّ لِكُلِّ آية من القرآن ستِّين ألف فَهم وما بقي من فَهْمِها أكثر، ولهذا يحتاج الفَهْم إلى الوُقوف على معرفة جميع العُلوم والاطِّلاع على همم الخلائق أجمعين كما قاله أبو سعيد الخراز[1] نَفَعَ الله به.

ونَقَلَ الغَزالي عن بعضهم أنّ فهمه يحتاج إلى خمسة وسبعين ألف عِلْم ومائتي عِلْم، وليس مراد الخراز اشتراط وقوف الرّاسخ على جميع جزئيّات العُلوم المُتعارفة، فإنّ أبا بكر وعُمَر نَفَعَ الله بهما ورضي عنهما كانا من الرّاسِخين في العِلم مع توقّفهما في معنى (الأَبِّ) في قوله تعالى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ [عبس: ٣١] حتى امتنعا عن الخَوْض فيه.

ونقل في الإحياء[2] عن ابن مسعود رضي الله عنهما أنه قال يوم مات عمر: اليوم ذهب تسعة أعشار العِلْم، ولا شَكّ أنّ أبا بكر أفضل منه، ولا فَضْلَ إلّا بالعِلْم الحقيقي، وإنّما أراد الخَرّاز العُلوم الكلية الحقيقيّة لا

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ١: ٢٣.

(٢) هو أبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز، من مشايخ الصوفية من أهل بغداد، صحب ذا النون المصري والسري وبشر بن الحارث وغيرهم. وله مصنفات منها: «كتاب الصدق أو الطريق إلى الله»، توفي سنة ٢٨٦هـ. الصفدي: الوافي بالوفيات ٧: ٢٧٥، الزركلي: الأعلام ١: ١٩١.

تفاصيل العلوم الُمتَداوَلة اليَوْم، فإنّ أكثرها لم يعرفها جمهور الصَّحابة وأكابر أهل بيت النبوّة أصْلًا.

بل الُمراد معرفة جميع مراتب الفَهْم التي تبلغها أصناف الخَلائِق بهَمَمِهم وتوجُّهِهِم إلى الحَقّ والانقطاع عمَّا سِواه، بدليل أنّه قال في آخر كلامه: واطلعوا على هِمَم الخلائِق، وهو يَصْلُح تفسيرًا لأوّل كلامه فيحمل عليه.

مرتبة العلم والمعرفة بالله:

وقد يكون العَبْد عالِمًا بالله ذا يقين كامل وليس عنده عِلْم من فُرُوض الكِفَايات، وقد كان علماء الصَّحابة وأكابر أهل البيت نَفَعَ الله بهم أعْلَم من عُلَماء التّابعين بحقائق اليَقِين ودقائق المَعرِفة، وقد كان عُلَماء التّابعين فيهم من هو أقْوَمُ بعِلْم الفَتْوى والأحكام من بعض الصَّحابة وبعض أهل بيت النبوّة مع الاتّفاق على فضل الصَّحابة وأهل البيت، وليس ذلك إلّا بكمال علمهم بالله ويقينهم فيه حتى كان بعض الصَّحابة وبعض أهل البيت يَردُّونَ الناس في علم الفَتْوى إلى بعض عُلَماء التّابِعين، ويعلّمون علماء التّابعين حَقائِق اليَقين ودقائِق المَعرِفة لأنّهم كانوا أقوم منهم بذلك.

ومِن ثَمّ كان أهل هذه العُلُوم أشرَف الخَلائِق وإن كان في غيرهم من العُلَماء من هو أعبد منهم، أمّا العِلْم فلأن فضيلة الإنسان بفضيلة العلم، وأمّا العمل فلأنّ رزانة الأعمال وشرفها على قدر الحَظّ من العلم، وهم قد جاوزوا العلوم الرسميّة إلى العلوم اللدنيّة من انصباب أنوار الُمشاهدة وعين اليقين، فعلمهم أفضل من أعمال سائر العلماء وإن تعبوا أكثر من تعبهم، ومن ثَمّ قال الإمام الشَّريف عبد الرَّحمن السقّاف علوي: أوقية من عمل الباطن تعدل ثلاثمائة رطل من عمل الظّاهر، وبنحو ذلك قال ولده

السَّكْران وولده المِحْضَار: وَمِنْ ثَمَّ كان أسلافنا العلويّون نَفَعَ الله بهم لشَغَفِهم بهذا المَنْهَج لِعُلُوِّهِ جُلَّ انتفاعِهِم واشتِغالِهِم بفُنُونِه حتّى قال الإمام الشَّريف العيدروس: لو بَعَثَ الله المَوْتَى ما أوصوا الأحياء إلّا بما في الإحياء، وكان الإمام الغَزَالي يقول[١]: مَنْ لم يَكُنْ له نَصِيب من علم البَاطِن أخاف عليه سوء الخاتمة، وأدنى النّصيب منه التّصديق وتسليمه لأهله.

عظمة أعمال أهل القلوب:

وكان الشَّيْخ أبو المَواهِب الشَّاذِلي[٢] يقول: رأيت النَّبيّ ﷺ في المَنَام فَقُلْتُ: يا رسول الله إني متطفِّل في عِلم التصَوُّف، فقال: اقرأ كلام القوم فإنّ المتطَفِّل على هذا العِلم هو الوَلِيّ، وأمّا العَالِم به فهو كالنَّجم الذي لا يُدْرَك. انتهى.

فالقليل من عمل هؤلاء يقوم مَقَام الكَثِير من غَيْرِهم لأنّ هؤلاء يبالِغونَ في تنويرِه بتكميل شرائطه، فالرَّكْعة الواحدة منهم تقوم مقام ألف ركعة من غيرهم كما يشير إليه قول ابن مسعود نَفَعَ الله به: (إنّ الرَّجُل من هذه الأُمَّة يبلغ عمله يومًا واحدًا أثقل من سَبْع سَماوات وسَبْع أرضِين في الوَزْن)[٣].

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ١: ١٩.

(٢) محمد بن أحمد بن محمد، أبو المواهب بن الحاج التونسي القاهري المالكي، المعروف بابن زَغْدان ولد بتونس سنة ٨٢٠هـ، فحفظ القرآن وعدة كتب وأخذ العلوم عن جماعة من علماء عصره كالرملي والبرزالي والموصلي وغيرهم، وله عدة مصنفات منها: «مراتب الكمال»، و«شرح الحكم»، وغيرها. توفي سنة ٨٨٢هـ. المناوي: الطبقات الكبرى ٣: ٢٤٢ – ٢٥٢.

(٣) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢: ٣٠٤) في الأصل الثامن والثمانون والمائة في خصال يحصل بها طعم الإيمان، وليس له إسناد صحيح.

وعن أبي موسى رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ نَظَرَ إلى جَبَلِ أُحُد فقال: «رُبَّ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي يَعْدُل الحَرْف الواحِد من تَسْبِيحِه هذا الجَبَل»[1] قال الحكيم الترمذي[2]: فاللحظة من سائر العارفين المقرَّبين أعظم من أعمال الثّقَلين من عُمْرِ النبيّ نوحٍ عليه السلام.

وقال أبو القاسِـم الصقلِّي: ركعة من عارف أفضل من ألف ركعة من عَالِمٍ[3]، ونَفَسٌ واحد من أهلِ حقيقة التّوحيد[4] أفضل من عمل كُلّ عالِمٍ وعارِف، وفي الإحياء للغزالي: إن نَفسًا من عارف أفضل من درجة ألف شهيد، ومِنْ ثَمَّ قال العارفون: إنّ نَفَسًا من أنْفَاسِ الغَوْث الشَّريف الجدّ الفقيه المقدَّم محمد بن علي علوي نَفَعَ الله به يعدل عمل الثَّقَلَيْن، كيف لا؟ وهو القائل: أنا في الأولياء كمحمد في الأنبياء، بل هؤلاء العارِفون وإن لم يتعبَّدوا بالنَّوافِل فَهُم أفضَلُ ممَّن يتعبَّد بها من العُلَماء الرَّسميّة لقوله ﷺ: «فَضْلُ

---

[1] ليس له إسناد ثابت ، وقد ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢: ٣٠٤).

[2] ترجمه الحافظ الذهبي في كتابه تذكرة الحفاظ (٢: ٦٤٥) ومما قاله فيه هناك : (الحكيم الترمذي الامام أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر الزاهد الحافظ المؤذن صاحب التصانيف روى عن أبيه وقتيبة بن سعيد والحسن بن عمر بن شقيق وصالح بن عبد الله الترمذي ويحيى ابن موسى وعتبة بن عبد الله المروزي وعباد بن يعقوب الرواجنى وطبقتهم وعنى بهذا الشأن ورحل فيه ..) توفي سنه ٣٢٠هـ رحمه الله تعالى.

[3] لا يصح هذا روايةً، وقد رواه الديلمي في مسند الفردوس (٢: ٦٥) عن أنس بن مالك مرفوعًا ولفظه: (ركعتان من رجل ورع أفضل من ألف ركعة من مخلط)، وقد رواه الشيرازي في الألقاب عن سيدنا علي كما قال السيوطي في الجامع الصغير بلفظ : (ركعة من عالم بالله خير من ألف ركعة من متجاهل بالله) ، أما دراية : فالعارف بالله أي بالعقيدة الصحيحة مع الورع والاستقامة أفضل من العالم الذي لا ورع له ولا استقامة ، قال تعالى ﴿ **أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ** ﴾ [ص : ٢٨] .

[4] وهم العالمون بالتوحيد من غير تقليد الفاهمين لأصول الإيمان في الكتاب والسنة مع الورع والاستقامة .

العالِم على العابِد كفَضْلي على أُمَّتِي»[1]. ولا نسبة لفضله ﷺ على الأُمَّة إلّا كنسبة الوُجُود إلى العَدَم، وإنّما كان فَضْلُ هذا العالِم كَفَضْلِه عليه الصَّلاة والسَّلام على الأمَّة، لأنه يكون مَحَلّ النَّظَر الإلهي وواسطة فيضه كما كان عليه السَّلام لكنه عليه الصَّلاة والسَّلام بالأصالة وهذا بالتبعية.

أفضلية العلم بالله على العلم المجرد:

فإنْ قلتَ: الاستدلال بالخَبَر المُتَقَدِّم على هذا العلم الذي تعينه غير تام لأنه وارد في العالِم والعابد المطلقين، فيَصْدُقُ بالعالم الرَّسمي والعابِد بلا علم، بل هو المتبادر إلى الفَهْم.

فالجواب: ما قدّمناه من أنّ بعض الصَّحابة كانوا يَرُدُّونَ النّاس في علم الفَتْوى إلى بعض علماء التّابعين لكونهم أقوَم بهذا العِلْم منهم ويعلِّمونهم هذا العِلم، فلو لم تكُن الإشارة في الخَبَر المتقدِّم إلى هذا العِلم للَزِمَ كـون بعض عُلَمـاء التّابِعين أفضل من بعض عُلَماء الصَّحابة ولا قائل به.

وبالجُملة: فهذا العلم بالنسبة إلى العِلْم الرَّسمي كالزِّبد المُسْتَخْرَج من اللَّبَن الذي هو عِلم عُلَماء الرَّسم المخصوصين بأصل الإيمان واليقين النّظَري، نعم ولا شَكّ أنّ للعالِم الرَّسمي فضيلة على العابِد الجَاهِل بذلك العِلْم، كما أنّ للعالِم بهذا العِلْم فضيلة على العَابِد العالِم بذلك العِلْم، ولفظ العابِد عامّ يُطْلَق على هذا وعلى هذا.

---

[1] رواه الترمذي (٢٦٨٥) في كتاب العلم باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ، وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح. ولفظه (على أدناكم) بدل (على أمتي) .

وممّا يُدَلِّل على فَضْل هذا العِلم الذي اهتمّ به العارِفون نَفَعَ الله بهم قول القطب الأوحد إسماعيل الجبرتي[1] الهاشمي العقيلي نَفَعَ الله به: قد يَنَالُ المَرْءُ بمسألة من مسائل عِلْمِنا هذا ما لم يَنَلْهُ بمجاهدة خمسين سنة.

وممّا يدُلّ على شرفه أيضًا قول سَيِّد الطَّائفة الجنيد نَفَعَ الله به: الإيمان بطريقتنا هذا ولاية - يعني نصيبًا منها - وإن كان أدنى ليس له حكم الولاية الخاصة، كما أنّ المؤمن بالنبوَّة له نصيب منها وإن لم يحكم له بها.

وممّا يدلِّل على شَرَفِ هذا العِلْم أيضًا قول سَيِّدي زرُّوق[2] نَفَعَ الله به: العافية الكاملة هي سكون القَلْب إلى الله تعالى باليقين الموجب للرِّضا والتَّسليم، والبليّة كلّها في الشَّكّ والاضطراب والتَّرَدُّد بين الخَوَاطِر المُتَزَاحِمة التي لا يهنأ لصاحبِها عَيْش ولا يَقَرُّ له قَرَار.

ومِمَّا يدلُّك على شَرَفِ هذا العِلْم أيضًا ما رُوِيَ: أنّ رَجُلًا جاء إلى معاذ رضي الله عنه. فقال: أخبرني عن رجلين أحدهما مجتهد في العبادة كثير العمل قليل الذّنوب إلّا أنه ضعيف اليقين بعثور الشّك؟

فقال معاذ: ليحبطن شكّه عمله.

---

(١) إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الصمد الجبرتي الزبيدي مولدًا ومنشًا العقيلي نسبًا الشيخ العارف بالله تعالى المربي، صحب في بدايته جماعة من المشايخ والعلماء وظهرت عليه بركتهم، وصحبه جمع كثير وانتفعوا به، ولم يكن له نظير في اليمن في كثرة الأتباع والأصحاب. توفي سنة ٨٧٥هـ. الزبيدي: طبقات الخواص ٣٧ - ٤٠، المناوي: الطبقات الكبرى ٣: ١٧٢.

(٢) الشيخ أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي المالكي المعروف بزرُّوق لأن جدّه كانت بعينه زرقة فقالوا: زرُّوق، فَسَرَت في عقبه، ولد بفاس سنة ٨٤٦هـ مات أبوه قبل تمام أسبوعه فنشأ يتيمًا وحفظ القرآن وعدة كتب وطاف وساح، وارتحل إلى مصر فحج وجاور بالمدينة وأقام بالقاهرة نحو سنة ثم غلب عليه التصوف، ووضع عدة كتب وشروح. توفي سنة ٨٩٩هـ. المناوي: الطبقات الكبرى ٣: ١٦٦ - ١٧٢، السخاوي: الضوء اللامع ١: ٢٢٢.

قال: فأخبرني عن رجل قليل العمل إلّا أنه قوي اليقين وهو في ذلك كثير الذّنوب، فسكت معاذ. فقال الرجل: والله لئن أحبط شكّ الأوّل أعمالَ بِرِّهِ ليحبطن يقين هذا ذنوبه كلّها، فعند ذلك أخذ معاذ بيد الرجل وقال: ما رأيت الذي هو أفقه من هذا.

وفي وصيّة لقمان عليه السَّلام لابنه: يا بُنَيّ لا يستطاع العمل إلّا باليقين، ولا يعمل المرء إلّا بقدر يقينه، ولا يقصِّر عامل حتى يَقْصُرَ يقينه.

وبالجملة: فلا ينفع العمل بدون التّنوير المفيد للمعيّة وانشراح الصَّدر كما قال معاذ، بل هذا التنوير يزيل ظلمة المعاصي فيوفق للتوبة كما قاله سائل معاذ لا عمل بدون هذا التنوّر، وذلك لأن العمل إنّما سمِّي عملًا عند تكميله بأداء حقوقه.

ولا يمكن ذلك مع بقاء ظلمة النَّفْس كما أشار إليه لقمان عليه السَّلام فتنبّه لذلك ايُّها الطَّالب الرَّاغب، فإنّ أهل المعرفة قالوا: إذا أراد الله بعبد سوءًا سَدَّ عليه باب العمل وفتح له باب الكَسَل، وقالوا أيضًا: علامة رضا الله على العَبْد نشاطه عند الطَّاعة وتكاسله عند المعصية، وعلامة سخطه عليه نشاطه عند المعصية وتكاسله عند الطَّاعة.

فضل المجاهدات:

ومِنْ ثَمَّ قال القطب الشَّريف عبد الله العيدروس: والكنوز كلّ الكنوز في دفائن المجاهدات. وأنشد شعرًا:

على قَدْر أهل العَزْم تأتي العَزائمُ   وتأتي على قدر الكـرام المكـارمُ

وقال أخو العيدروس الشَّريف القطب علي بن أبي بكر[1]: بالجِدِّ والاجتهاد تُدْرَكُ غاية المُراد، وبالعزمات الصِّحاح يُشرِقُ مصباح الفَلَاح،

---

[1] سبقت ترجمته.

وما حصلت الأماني بالتّواني، ولا ظفر بالأمل من استوطأ فراش الكسل، وإيّاك أن تقول: إن قُدِّرَ شيءٌ وصل، وإن كان مقضي في الغَيْب حَصَل، فبالحَرَكات تحصل البَرَكات وبالهَزِّ يَسْقُطُ الثَّمر، وأُمُّ العَجْزِ أبدًا عقيم. وأنشد شعرًا:

بقَدْرِ الجدِّ تُكْتَسَبُ المَعَالِي وَمَنْ طَلَبَ العُلَى سَهِرَ اللَّيالي
تروم المجد ثم تنام ليلًا يغوص البحر من طلب اللآلي
ومن رام العُلَى من غير كَدٍّ أضاعَ العُمْرَ فِي طَلَبِ المُحال

وفي الحديث: «إذا ارادَ الله بعبدٍ خيرًا جعل له واعظًا من نفسه يأمره وينهاه»[1] انتهى.

وَمِنْ ثَمَّ قال الشَّاعر رحمه الله:

وليسَ تنهى النَّفْسُ عن غَيِّها ما لم يَكُنْ مِنْها لها زاجِرُ

ارتباط الأسباب بالمسببات:

واعلم أن القُدْرة جارية بالسّبب والمسبَّب معًا، بتأثير المسبِّب وبتأثير المسبَّب، وهي قائمة بالسَّبب مع استغنائها، وإنّما الحكمة اقتضت الارتباط لغلبتها على ظهور القُدرة في هذه الدّار، لذلك اقتضَتْ ارتباط المسبَّبَات بالأسباب في الدُّنيا، كما أنّ في الآخرة الظّهور للقُدرة مع بطون الحكمة.

والعمل في الآخرة على ما خرجت عليه من الدنيا إلى الآخرة، فَمَنْ وفِّقَ في الدّنيا للأسباب كان ذلك علامةً على حصول مسبَّبَاتِهَا من مواعيد

---

[1] رواه أحمد في الزهد ص (٣٠٦) من كلام ابن سيرين وهو الصواب ، ورواه الديلمي في مسند الفردوس كما في زهر الفردوس ص (٩٣) عن ابن سيرين عن أم سلمة رضي الله عنها مرفوعًا، ولا يثبت .

الله الكريم عليها كعلامة الدخان على النّار، وقد تُنَالُ تلك السّعادة مع التّوحيد بدون ذلك، لكن كما أنّ الرِّزق لا يُنَالُ غالبًا إلّا بالحركة مع القطع أن القُدرة في إيصاله إلى العَبْد غنية عن الحركة، وقد يحصل الرّزق الكثير بدون حركة، فلذلك تلك السّعادة والعمل على الغالب.

أنواع أفعال الله:

وإيضاح ذلك أنّ أفعال الله على نوعين: أحدهما: بطريق تدبير الحكمة، أي تكَوُّن الشيء إلى مُدّة معلومة كالشّجر إذا غُرِسَ يُثْمِر في أوانه، وثانيهما: بطريق تصريف القُدرة مثل قوله: كن فكان في الحال، والذي كوشف بصرف المعرفة من أولياء الله تعالى يرى تصريف القُدرة من سِرّ تدبير الحكمة، أي أنّ من يقدر مثلًا على قوام البَدَن بالقوت الجِسْماني قادر على قوامه بالقوت الرَّحماني من غير غذاء ظاهر كما قال سَيِّدي أبو عبد الله القرشي[1] نَفَعَ الله به: العارف هو الذي يرى تصريف القُدرة وتدبير الحكمة في نظره سيان، وذلك أنّ العارف الذي وصل إلى مقام تصريف القُدرة، أعني إذا قال للشيء كُنْ فيكون في لحظة واحدة كإثمار الشجر في ساعة واحدة بخلاف مقتضى العادة، ثُمّ صَدَرَ منه فعل على طريق تدبير الحكمة، كأن غرس شجرة وأثمرت هذه الشَّجَرة على مُدّة معلومة لا يفرِّق بينهما، فإذا وجد فَرْقًا ما بين هذين الفعلين بالإعجاب بأحدهما وما استويا في نظره هذان الفعلان فليس بعارف، وإلّا فالله تعالى غني عن الأسباب بل لا أثر

---

[1] محمد بن أحمد بن إبراهيم، أبو عبد الله القرشي عارف جليل، وصوفي نبيل. أصله من بلاد الأندلس من الجزيرة الخضراء، قدم إلى مصر فسكنها، ثم إلى بيت المقدس وبها توفي سنة ٥٩٩هـ ودُفن بجانبه ابن أرسلان. المناوي: الطبقات الكبرى ٢: ٢٨٣ – ٢٨٧.

لها، بل المؤثِّر هو الله تعالى عند وجودها لا بها، غير أنه جَرَتْ سنة الله - أي عادته - المستمرّة التي لا يفعل خلافها إلّا لإظهار معجزة أو كرامة في إعطاء الأسباب حقّها لإقامة رسم الحكمة لما في ترتيبها من ظهور لطائف العِلم وغرائبه، وإهداء بعض وإضلال آخرين إبقاءً لتجلّي الجلال والجمال حقّه.

وَمِنْ ثَمَّ قد يفتح الله على بعض عبيده عناية بذلك العبد بابًا من التعريف يعرف به كمال قهرِه على العصاة بأن يؤاخذه على كُلّ معصية صَدَرَتْ منه بخِلاف المُسْتَدْرَج الذي يَجْهَل حتى يتوهّم أنه يمهل، حتى لو جرى على هذا العبد المذكور يسير من ذنب حاله بإخلاله بأدب من آداب الطريقة أو الذّنب الشَّرعي الذي هو الذّنب المُطْلَق بالنسبة إلى أهل الظّاهر وأهل الطريقة والحقيقة لوجد بعد ذلك عقوبته فورًا أو في يومه ذلك وليلته تلك، ولا تتأخّر العقوبة وراء ذلك، وتلك العقوبة كما قال بعضهم نَفَعَ الله بهم: إني لأعرف ذنبي في سوء خلق غلامي يؤدِّبني الله جزاءً على ما صَدَرَ منّي. وهذا من عناية الله تعالى بِعَبْدِه رزقنا الله ذلك وحَفَّنا بعنايته.

وجوب العمل بالعلم:

واعلم أنه ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ الشَّيْطان ربّما سَبَقَكُمْ بالعِلْم فقيل: يا رسول الله كيف يَسْبِقُنا بالعِلْم؟ قال: «يقول: اطلب العِلْمَ ولا تعمل به حتى تعلم، فلا يزال العبد في العلم قائلًا وفي العمل مُسَوِّفًا حتى يَموتَ وما عمل»[1] انتهى.

---

[1] رواه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١: ١٣٢) عن أنس مرفوعًا بسند ضعيف. وأظن هذا من كلام كعب الأحبار لأن الإسناد حمصي .

ومِنْ ثَمَّ كان بعض مشايخي رحمه الله تعالى يقول: الذي يتعلَّم العِلْم ولا يعمل به كالذي يتوضّأ دائمًا ولا يصلِّي لله ركعة، وكان كثيرًا ما يقول لبعض تلامذته: توضّأ وَصَلِّ إشارة إلى ذلك، أي كما علمت علمًا نافعًا فاعمل به وإلّا فقد قال الشَّاعر رحمه الله تعالى:

لو كانَ العِلْمُ من دون التقى شَرَفًا　　لَكَانَ مِن خَيْرِ خَلْقِ الله إبلـيسُ

نور المعرفة بالله تعالى:

ومن ثَمَّ قال ابن مسعود رضي الله عنه: ليس العلم بكثرة الرِّواية، إنّما العِلْم الخشية - أي إنّما المقصود منه العمل الذي توجبه الخشية اللّازمة للعلم - وأمّا قوله في النظم: يُجْلَ لَيْلُ حَالِك[1] أي بنهار المعرفة بالله تعالى الذي هو مع كمال ظهوره في الخَلْق احتجب عنهم بصفة غناه الذّاتي، واحتجب عنهم بكونه مقدَّسًا عن صِفَات الكائنات، والشيء لا يُدركُ ما ليس فيه فلا تُدْرِكُ الكائنات له فبالضّرورة احتجب عنهم واحتجب عنهم بقهره لمدركات الكائنات أن تَصِلَ إليه.

هذا وكمال الظُّهُور لا ينافي الاحتجابَ كنور الشَّمس بالنّسبة إلى أبصار الخفافيش، بل قد يستلزم كمالُ الظُّهُور الاحتجاب فإنّ نور الشَّمس لما كان في غاية الإشراق التبس على بعض النّاس أنه ليس سوى ألوان الأشياء، ولولا ظُهور التّفرقة بين النور واللون بغروب الشمس لدام الالتباس بأنّ نور الشّمس ليس إلّا ألوان الأشياء، لكن إذا غربت الشمسُ لم توجد ألوان الأشياء أصلًا، فَعُلِمَ أنّ نورَ الشَّمس شيء آخر، وألوان الأشياء شيء آخر.

---

[1] في النظم المتقدِّم أول الكتاب.

وليس كذلك في وجود الله تعالى، فإن إشراقَهُ على الكُلّ بلا تفرقة أصلًا فلم يرتفع الالتباس، فسُبْحَان مَنْ هو الأوّل والآخر والظّاهر والبَاطِن الذي لا يُدْرِكُ حال البصيرة - الذي هو قوّة الرّوح - كُنْه حقائق أسمائه وصفاته فضلًا عن كُنْهِ ذاته المطلقة. وإذا كان هكذا حال البصيرة فكيف حال البصر والعقل؟

وَمِنْ ثَمَّ قال الصدِّيقُ الأكبر رضي الله عنه: العجز عن دَرْكِ الإدراك إدراكٌ، وقال: سبحان من لا سبيل إلى معرفته إلّا بالعَجْزِ عن معرفته، فهو الملك الجليل العظيم القهّار الواسع العَلِيم الذي ما عرفه حقيقةً غَيْرُه حتى قال العارف إسماعيل الجبرتي نَفَعَ الله به: القرآن فيه جميع أسماء الله تعالى التي يُعْرَفُ بها والتي ما يُعْرَفُ بها، واسمه (الله) جامع لجميع مراتب الأسماء، وهذه الأسماء التي يُعْرَفُ بها كالشّريعة، وذات الله عزّ وجل أعجزتِ القرآن.

وقال أيضًا: الله أكبر عجزتْ أسماء الله عن معرفة الله، أسماء الله تطلبه كما نطلبه، قال تلميذه العارف أحمد الرّدَّاد[1] نَفَعَ الله به: يعني أنّ الأسماء من حيث كونها أسماء تطلب عين المسمَّى فلا تَحْمِلُ منه الأسماء إلّا ما هي قائمة به من المعاني، وأما الأسماء من حيث كون المسمَّى إياه وعينها فعين واحدة مستغرقة لكلّ عين ولكلّ أثَر، ولا عين ولا أثَر ولا عِلْم ولا خَبَر، والله بِكُلّ شيءٍ مُحِيط. انتهى.

---

[1] أحمد بن القاضي رضي الدين أبي بكر بن محمد الرداد البكري التيمي القرشي اليمني، انتهت إليه رئاسة الصوفية باليمن، وقدم مكة حاجًا، وله مؤلفات كثيرة منها: كتاب «موجبات الرحمة ووعزائم المغفرة». توفي سنة ٨٢١هـ. المناوي في الطبقات الكبرى ٣: ١٥٧- ١٥٩، الزبيدي: طبقات الخواص ٣٠- ٣٢.

فَسُبْحانَ مَنْ لشدّة ظهوره احتجب عنَّا بنوره فلم نعرفه سوى من وجه دون وجه، وبالجملة فله التفرُّدُ عن المَظاهر بمقتضى «كان الله ولا شيء معه»[1]، وله الظُّهُور فيها بمقتضى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]. لكنه لا يتقيَّد بذلك، فإنّه من وراء ذلك بمقتضى ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ [فصلت: ٥٤]. وصلواته وسلامه على الوسيلة الكبرى إليه وعلى آله وأصحابه الفائزين بالحَظِّ الأوفر ممَّا لديه.

وهنا انتهت هذه التّعليقة التي استمدينا فيها من عوارف: عوارف العارفين وذوارف[2] لطائف الواصلين خصوصًا كتاب (عوارف المعارف)[3] وشرحه (زوارف[4] اللطائف) للمحقِّق الشَّيْخ علي المهائِمي[5] رضي الله عن الجميع ونَفَعَ الله بهم في كُلّ وقت وحين، وصلّى الله على سَيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم آمين، والحمد لله ربّ العالَمين، وحَسْبُنا الله ونِعْمَ الوَكيل، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلّا بالله العَلِيّ العَظيم، نِعْمَ المَوْلى ونِعْمَ النَّصير..

---

(١) رواه البخاري (٢: ٣٧٤، حديث رقم ٣١٩١) عن عمران بن حصين في كتاب بدء الخلق باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾. ولفظه «... كان الله ولم يكن شيء غيره»، وأما رواية (ولم يكن شيء معه) فلم أقف عليها.

(٢) مشتقة من الذرف: انصباب الدمع من العين.

(٣) كتاب عوارف المعارف للشيخ شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد السهروردي المتوفَّى سنة ٥٨٦هـ. ترجمته في البداية والنهاية لابن كثير ١٣: ١٣٨ - ١٣٩.

(٤) الزوارف: أي الزيادات. كما يستفاد من لسان العرب لابن منظور، مادة: زرف.

(٥) الشيخ علي بن أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الدكني الهندي الحنفي، المعروف بالمخدوم المهائمي، نسبة لمهائم من نواحي الدكن بالهند التي ولد بها سنة ٧٧٦هـ، وهو فقيه متكلم، ومفسر صوفي، له عدة مؤلفات. وعنوان شرحه هذا هو: «زوارف اللطائف في شرح عوارف المعارف»، وتوفي سنة ٨٣٥هـ. الزركلي: الأعلام ٤: ٢٥٧، أبجد العلوم ٤: ٢٢٠.

الخاتمة

حضر هذا الكتاب فقير رحمة ربّه الوهّاب مصطفى بن عبد الرحمن ابن مصطفى العيدروس[1] على الأستاذ الكامل العالِم أحمد بن أحمد البستاني[2] بدمياط سنة ١١٩٣هـ وأخبرني أنّه قرأه على الأستاذ العَلّامة الإمام أحمد الملوي[3] بمسجد الإمام الحسين قبل الثّمانين من هذا القَرن وهو يرويه عن مؤلّفه سَيِّدي الوالد رحمه الله تعالى ونَفَعَنا بهما آمين.

فائدة: توفي العلّامة السَّيِّد أحمد الملوي سنة ١١٨١هـ ودُفِنَ بمسجد الحسين وتوفِّي سَيِّدي الوالد سنة ١١٩٢هـ ودُفن قبال مسجد السَيِّدة زينب بنت علي وفاطمة وتوجّه شيخُنا البستاني إلى الحَرَمَيْن سنة ١١٩٧هـ من البحر في شهر شعبان المكرّم ونوى الإقامة بها. انتهى.

بعد المقابلة من الأم المنقول منها على يَدِ مالِكِه الفقير محمد بن سالم ابن علوي بن أحمد السري باهارون جمل الليل باعلوي[4].

---

(١) هو ابن مؤلف الكتاب، ولد بالحجاز سنة ١١٧٣هـ وتوفي في مصر سنة ١١٩٩هـ. الجبرتي: عجائب الآثار ٢: ١٠٨.

(٢) الشيخ أحمد بن أحمد البستاني الدمياطي، توجه إلى الحرمين سنة ١١٩٧هـ بنية الإقامة بالحجاز.

(٣) هو الشيخ أحمد بن عبد الفتاح بن يوسف بن عمر المجيري الملوي الأزهري، له مؤلفات عديدة، توفي سنة ١١٨١هـ. الجبرتي: عجائب الآثار ١: ٢٨٨.

(٤) أبو عبد الله محمد بن سالم بن علوي السري باهارون جمل الليل الحسيني الحضرمي التريمي، محدث مسند، له ثبت، ، اشتغل على تحصيل العلم ولازم علماء عصره وأخذ عن أعلام زمانه بحضرموت والحجاز وغيرهما، وكان له شغف بجمع نوادر الكتب، توفي بعد سنة ١٣٢٣هـ. الكتاني: فهرس الفهارس والأثبات ٢: ٥٧٩ ـ ٥٨٠، كحالة: معجم المؤلفين ١٠: ١٦.

فوائد شعريّة ونثريّة

.. للعارف بالله سيدي علي وفا[1] نَفَعَ الله به، آمين:

خلوصي من مغايرتي فنــائــي وتحقيقي لتوحيدي بقـــــائـي

لسيدنا ومولانا السيد عبد الرَّحمن بن مولانا السَّيِّد مصطفى العيدروس عفا الله عنه معجـزًا ومصدرًا أبيات لعمّ والـده وهو السَّيِّد العلّامة العـارف بالله تعالى جعفر الصّادق ابن الإمام مصطفى العيدروس[2] نَفَعَ الله بهم:

طابَ وقتُ السَّماع يا ذا المُغَنِّـي وبــه أثمـرتْ غـروسُ التمنِّـي

رَوِّق القـولَ كـم تثـيرُ غَرامـي إنّـــما أنـــتَ بـــالغنى تَمْتَحِنِّـــي

كُلُّ ما في الوجودِ يرقُصُ شَـوْقًا وبه الشَّوقُ نحو روض التَّهَنِّـي

صَاحِ إن غِبتُ عن وجودي اشتياقًا وانزعاجًــا وحُرقَــةً لا تلمنـــي

إنَّ شــــأنَ السَّـــماع والله شــــأنٌ قُل لشانيه لستَ مِن أهـلِ فَنِّـي

إن تُرِدْ وَصفَ فِعْلِـهِ فَهُـوَ نُـورٌ مُدهِشٌ مُقلـقٌ ومغنـي ومُـدني

يَجعلُ الكُـلَّ بالشُّـهُودِ حَيَـارَى يا لَهَـا حـيرةٌ خَلَـتْ عـن تَعَنِّـي

حَبَّـــذا أهلُـــه لديـــه نَشَـــاوَى بل سُكَارَى مِـن غَـير خَمـرَة دن

يَـا أسَـارَى الغَـرَام في كُـلِّ وَادٍ مَا أنـا مُعْـرَبٌ ولسـتُ بمَبنِـي

مَشْرَبُ المَحوِ في العُرُوج هَجِيري حَضـرَةُ الجمع مَسهَدِي وَهِيَ حِصْـنِي

---

[1] علي بن محمد بن وفا، أبو الحسن القرشي الأنصاري، متصوف ولد بالقاهرة سنة ٧٥٩هـ، وله عدة مؤلفات منها: «الباعث على الخلاص في أحوال الخواص»، وكتاب «العروش»، توفي سنة ٨٠٧هـ. السخاوي: الضوء اللامع ٦: ٢١، الزركلي: الأعلام ٥: ٧.

[2] سبقت ترجمته.

فَاحتسُوا خمرها على كُـلِّ حـالٍ   واخرِجُوا من خَبَالِ حَالِ المُثَنِّي
واقبَلُـوا نحوَهَـا بقـالٍ وحـالٍ   واشـهدوا وَجـهَ طِيبِهَـا المُتَثَنِّـي
مَن بسيفِ الجـمالِ أدنَـى المَنَايـا   مِثلُ خَوفٍ تُبدِيه أجوَاف أمنِـي
وَبِسـرِّ الكَـمالِ أفنَـى وأبقَـى   وبلُطفِ الجَلالِ أُبـدِي التَجَنِّـي
وجَـرَى بينَنَـا قـدِيمُ حـديثٍ   لَمْ أُصَرِّح بِـهِ ولكـن أُكَنِّـي
وَهوَ والسّـرُّ وَاحِدٌ يَـا مُريـدِي   مُسـفِرٌ عَـن وَجُـوهِ سِرِّ التَثَنِّـي
وأُديـرَت كُـؤُوسُ خَمـرِ اتحـادِ   في انطلاقٍ والقَيدُ قَد طَاحَ مِنِّي
يـا لَهَـا حَالَـةٌ تَجَـلَّى سَـنَاهَا   حَيثُ لا حَيثُ بَعدَ ذا لا تَسَلني
بَل أعنِّي بِـذِكر سَـلمَى وَلُبنَـى   وبمن حـلَّ في الرِّبَـا مـن أَغـنِّ
وبِــذِكرِ الطَّــلا ونَقَـراتِ دُفٍّ   وَحَـدِيثِ الغَـرَامِ في كُـلّ فَـنِّ
وَبَرُوقُ الحَمَـى وسُـكّانُ سَـلعِ   وبِسَجع الحَمَامِ من فَوقِ غُصـن
وابتِسام الزُّهُورِ والغَيثُ يبكـي   وارو عند الكِرامِ ما صَحَّ عَنِّـي
وإذا ذُقْـتَ مـن شَرابِي نَصِـيبًا   فَهُوَ عينُ القبُول فارقُص وغَـنِّ
لا تَخَفْ بَعدَهُ أليـم افتــراق   فَلَكَ الوُصلُ والوُصُولُ اللدنِّي

وله كذلك معجزًا ومصدرًا[1]:

نَحْــنُ بـــالله عِزُّنـــا   والحَبيــــبِ المُقَـــرَّبِ
بِهِــــا عَـــزَّ قَـــدْرُنَا   لا بِــــمَالٍ ومَنْصَـــبِ
كُــلُّ مَـــنْ رَامَ ضُرَّنَـــا   مِــنْ قَرِيــبٍ وأجْنَبِــي
سَــيفُنَا فيـــه قَولُنَـــا   حَســبُنَا الله والنَّبِــــى

[1] الأبيات الأربعة في ديوان المؤلف: تنميق السفر (الملحق بذيل ديوانه تنميق الأسفار) ص٢١٣.

وله معجزًا ومصدرًا بيتي العلامة جعفر الصادق بن زين العابدين العيدروس عَمِّ المتقدّم ذكره نَفَعَ الله بالجميع:

لا تَشهَدِ الخَلْقَ واشهَدِ البَارِي ... كـي يُنـتِجُ الخـبر سِرَّ إخبَـارِي
لا تنظُــرِ الغَــير فِي مَظَــاهِرِه ... فســرُّهُ فِي جَمِــيعِهِم سَــارِي
وَلَـيسَ فِي الكَـونِ غَـيرُه أحـدٌ ... فِي الجَمعِ والفَرقِ عِندَ إخبَارِي[1]
وَجُودهُم مِنْـه دَائِمـًا أبَــدًا ... وَفيهِمُ الكُلُّ حُكمُـه جَـارِي

وللعارف الشيخ أحمد الإحسائي[2] نَفَعَ الله به:

فاخرج عن الأكوانِ عِلْمًا أو فَمُتْ ... ذوقًا تر كشفًا محاسِـنَ زينَـةِ

ولعبد الرَّحمن بن مصطفى العيدروس معجزًا ومصدرًا، أبيات العارف عمر بامَخرَمة[3] نَفَعَ الله به:

اعْـطِ المَعِيَّـةَ حَقَّهـا ... إنْ شِـئْتَ أنْ تُعْطَـى الأَرَبُ
واشـهَدْ إلهـًا وَاحِـدَا ... والـزم لَـهُ حُسْـنَ الأدَبُ
واعْلَـم بِأَنَّـكَ عَبـدٌ ... بالـذات في كُـلِّ الرُّتَـبُ
وكَـذَا الجَمِيـعُ عَبيـدُهُ ... فِي كُـلِّ حَـالِ وَهُـوَ رَبُّ

وقلت نثرًا تعليقًا على الأصل:

---

[1] في ديوان تنميق الأسفار ص ١٢٠: علمًا وذوقًا في كل أطواري.

[2] الشيخ أحمد بن زين الدين بن إبراهيم بن صقر بن إبراهيم المطيرفي الأحسائي البحراني، مؤسس مذهب «الكشفية» نسبة للكشف والإلهام. ولد بالإحساء سنة ١١٦٦هـ، وتنقل بين بلاد فارس والعراق وسكن البحرين، له كتب ورسائل كثيرة منها: «جوامع الكلم»، و«معرفة النفس»، و«معنى الكشف وكيفيته». وتوفي سنة ١٢٤١هـ. الزركلي: الأعلام ١: ١٢٩.

[3] هو الشيخ عمر بن عبد الله بن أحمد بامخرمة الحميري السيباني، عالم فقيه وصوفي مشهور من أعيان حضرموت، صنف عدة كتب منها: «الوارد القدسي في تفسير آية الكرسي»، و«المطلب اليسير من السالك الفقير». توفي في سيئون سنة ٩٥٢هـ. الزركلي: الأعلام ٥: ٥٣.

إعطِ المعيَّة أي إعط معية الذّات اللّازمة لها الصِّفات، لأنّ انفكاك الصِّفات عن الذَّات غير معقول، فلينبه لذلك الغَافل الجَهول حقّها بشهود الظّاهر في المَظاهر على وجه يقتضي العينية ونفي الاثنينيّة، والزم له - أي المتجلّي بالجَلال والجَمال المنزَّه عن الانفصال والاتصال - حسن الأدب بأن تنزِّهه عن الشِّركة في الوجود، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]. أي على كل شيء شاهد وفي كل شيء مشهود.

ومن جملة الكمال أن لا تميل كُلّ المَيْل عن شُهُود القَمَر في الهِلال، واعلم - أي علمًا يقينًا شهوديًا عيانيًا - بأنك عبده لافتقارك إليه من جميع الوجوه، وهو المُفيضُ على حقيقتك ما سألت بلسان استعدادها الأزلي بحكم ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، في كل حال ـ أي في كُلّ تَجَلٍّ من التجلِّيات التي لا تتكرَّر وإن لم تشعر بذلك للطافة الحِجَاب وتشابه الصُّوَر ـ وافهم الإشارة إن كنت نابهًا من ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]، ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] لا في تجديد كما قال المحقِّق المُجيدُ المَجيدُ شعرًا:

البحرُ بَحرٌ على مَا كَانَ مِنْ قِـدَمٍ ... إنَّ الحَــوادِثَ أمــوَاجٌ وأَنْهَــارُ
ولا أَقُولُ بتكرارِ الوُجُـودِ وَلا ... عَودِ التَّجلِّي فَمَا في الأَمْرِ تِكْـرارُ

وهو رَبٌّ أيْ السَّيِّدُ المَالِكُ الهَادِي مَنْ شَاءَ إلى أحسَنِ المَسَالِك والصَّلاة والسَّلام في البَدءِ والخِتَام وعلى آله وصحبه الأعلام..

لمولانا وسيِّدنا **العارف بالله السَّيِّد عبد الله مدهر**[1] **نَفَعَنا الله به**.. آمين:

تَصْدُقْ فُهُوم الأكْثَرِينَ مِنَ الـوَرَى ... فَصَارُوا يَرَونَ الفِعلَ مِنْ غَيْرِ فَاعِلـه

---

(١) سبقت ترجمته.

وَمَا كَانَ تَصوِيتُ اليَـرَاعِ بنَفْسِـه إذَا مَا بَدَى بل ذاكَ مِنْ نَفخ حَامِلِه

وله نَفَعَ الله به:

مَا نَحْنُ إلّا عَبِيـدُ الله لَـيْسَ لَنَـا شَيءٌ مِنَ الأمرِ فِي التَّحْقِيقِ والنَّظَرِ
إنَّ الهُمُومَ مِنَ الأوهَـام مَنْشَأُهَـا وَرؤيةِ الغَيْرِ تَرْمِى العَبْدَ فِي الغِيَرِ

وللعارف التلمساني[1] نَفَعَ الله به:

قَـدْ ضَلَلْنا بشَـعْرِهَا وَهْوَ مِنْهَـا وهَدَتْنَـا مِنْهَــا لَهَـا الأضْــوَاءُ

غيره لغيره:

أنـا فـى الظَّلام يَطْلُــبُ سَـتْرًا فَافتَضَحْنَـا مِنْ نُورِهِ فِي الظَّلام

غيره:

تَجُولُ عُقُولُ الخَلْقِ حَوْلَ جَنَابـِهِ ولَمْ يُدْرِكُوا منْ بَرْقِـهِ غَيْرَ لَـمْعِهِ

للعارف بالله تعالى الشَّيْخ أيّوب الخلوتي[2] قَدَّسَ الله سِرَّه:

قَالَ المُحققُ إنَّ القُطْـبَ يَعْشَـقُ مَا بَدَا لَهُ مِنْ جَمَالٍ قُلتُ قَد صَـدَقَا
وإنْ تَقَيَّدَ قل أصْل الجَمَـالِ بـِهِ مُخَيَّمٌ لا تَلُومُوا الفَـرعَ إن لَحِقَـا

وله نَفَعَ الله به:

قَدْ لامَنِي الخَلْقُ فِي عِشقِ الجَمَالِ يَدْرُوا مُرَادِي فِيهِ آه لَو عَرَفُــوا
وَصَلْتُ مِنْهُ إلَى الإطْلَاقِ ثُمَّ سَـرَى سِرِّي إلَى قَيدِ حُسنٍ عَنهُ قد وقفُوا

---

(١) أبو الربيع عفيف الدين سليمان بن علي بن عبد الله بن علي الكومي، شاعر متصوف، ولد سنة ٦١٠هـ، وألف كتبًا عديدة، منها: «شرح مواقف النفزي»، و«شرح الفصوص لابن عربي». وتوفي سنة ٦٩٠هـ. الزركلي: الأعلام ٣: ١٣٠.

(٢) الشيخ أيوب بن أحمد بن أيوب القرشي الخلوتي الحنفي، شيخ من كبار المتصوفين، مولده سنة ٩٩٤هـ في دمشق، له عدة رسائل منها: «ذخيرة الفتح»، و«رسالة اليقين». توفي سنة ١٠٧١هـ. الزركلي: الأعلام ٢: ٣٧.

فائدة: ذكرناها في شرحنا على أنفاس العيدروس نَفَعَنا الله به:

قال بعض العارفين نَفَع الله بهم عند خوضه في ذكر وحدة الوجود: ومن معنى ذلك مثال ظاهر كرجلٍ يعلم وجود الشَّمس وإفاضتها النّور على الكواكب، وإنّ الكواكب من حيثها ظلمانيّة بالذّات، وإنما يظهر منها ليلًا إنما هو نور الشّمس وتعدده وتغايره إنما هو حسب قوابل النجوم لا حسب ذات النور مع مشاهدة ذلك الرجل الشَّمس واستهلاك نور بصره في شهوده إياها استهلاكًا حَجَبَهُ عن شهود النّجوم فهو يصف نور الشمس وتوحيده عن عيان، ويصف النّجوم وبما لحقائقها من الحكم في العلم مع تمكينٍ فيثبت ما له الثبوت وينفي ما له العدم عن الشُّهود وآخر يعلم ما علم ذلك المتمكِّن الكامل لكن له شُهُود بل هو في جوف الليل يثبت عن قوّة إيمانه ما يثبته الأوّل وينفي ما ينفيه، ورجل ثالث لم يعلم من النّور إلّا ما رآه في النّجوم ليلًا فرآه واحدًا من حيث حقيقته كثيرًا من حيث سريانه في حقائق النّجوم فقال بوحدته من هذه الحيثيّة فقط لتعدُّدِه من حيث النّجوم ووحدته من حيث حقيقته، فليس عنده وراء هذه المرتبة للنور وجود، فهو عنده كالحقيقة الحيوانية سارية في أنواعها وأشخاصها هي عين كل من ذلك بالحقيقة، ولا تعيُّن لها في نفسها.

فهذه الأقسام الثلاثة مثال لأحوال المتكلمين في شهود وحدة الوجود وكثرة أعيانه، فمنهم من أثبت الوجود ونفى الموهوم المعدوم بالذات علمًا وشهودًا كالرجل الأوّل، ومنهم من له ذلك إيمانًا وعلمًا فقط كالثاني، ومنهم من خلط فنفى الموجود وأثبت المعدوم. انتهى.

وممّا ذكرنا في شرحنا المذكور وهو المسمَّى (بالفتح المبين من أنفاس العيدروس فخر الدين) قول الشيخ محيي الدين ابن عربي نَفَعَ الله به:

إنّ ظُهُور الحَقّ في مرآة محمّد ﷺ أكمل ظهور وأعدله لما عليه مرآته، لأنّ المرآة لها أثر في نظر الرَّائي في المرائي، فإذا أدركته في مرآةِ محمدٍ ﷺ فقد أدْرَكْتَ منه كمالًا لا تُدْرِكه من حيث نظري في مرآتك، فلا تطلب مشاهدتك الحَقّ إلّا في مرآة نبيِّك محمّد ﷺ، واحذر أن تشهده في مرآتك أو تشهد النبيّ ﷺ، وما تجلَّى في مرآته من الحَقّ في مرآتك فإنّه ينزل بك عن الدّرجة العالية. انتهى.

ولا شك أن الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام أكمل النّاس مرائي، وأكمل كمالات المرائي مرآة نبيِّنا محمّد ﷺ فتجلِّيه فيها سبحانه أكمل، والمناظر في مرآة لا يُرى ما تجلَّى فيها إلّا على قدر صورتها وسعتها واعتدالها ونقصانها وكمالها. فافهم. انتهى.

ولشيخنا العارف السَّيِّد عبد الله مدهر علوي نَفَعَ الله به:

يَـــا مَـــنْ هُـــمُ مَظَـــاهِرْ ... والحَـــقُّ فِـــيْهُم ظَـــاهِرْ

حُجِبْتُـــــم لأنَّكُـــــمْ ... ألْـهَـــاكُمُ الـــــتكَاثُــرْ

ولمولانا السَّيِّد عبد الرَّحمن بن مصطفى من أبياتٍ:

ظَهَرْنا بِهَا فَرْقًا وجَمْعًا بِنَـا بَـدَتْ ... وَهَذَا هُوَ التَّحْقِيقُ والمَشْرَبُ الأهْنَا

وَمَا ثَـمَّ غَـيْر باعتبـار ظُهُورِهَـا ... فَدَعْهَا بِنَا تَبْقَى وَدَعْنا بِهَا نَفْنَـى

أخِي اثْبتِ الأعْيَانَ وانْفِ وُجُودَهَا ... وَذُقْ وَحدَةً رَاقَتْ لِمَنْ قَـدْ عَـلَا

ونَزِّه وشَبِّه واعْرِفِ الكُلَّ كي تَرَى ... عَرَائِسَ جَمْع الجَمْع في المَشْهَدِ الأسْنَى

ومنها:

وشَاهَدَتْهَا عَيْنِي وَلَـمْ أَرَ غَيْرَها ... ولا عَيْنَهَا وَالكُلُّ مِنْ ذَلِكَ المَعْنَى

وكان الفراغ من كتابة هذه الرسالة المباركة يوم الخميس المبارك يوم ستة عشر خَلَت من شهر الحجة الحرام الذي هو من شهور سنة ١١٩١ من

الهجرة على يد كاتبها الفقير المعترف بالذَّنب والتقصير حبيب بن سليمان الضمراوي بلدًا المالكي مذهبًا غَفَرَ الله له ولوالديه ولمشايخه ولإخوانه في الله تعالى وللمسلمين.. آمين.

مصادر ومراجع التحقيق

١. البابانيّ، إسماعيل بن محمد بن أمين البغدادي: هدية العارفين، بيروت: دار الفكر، ١٩٨٢م.

٢. البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري بحاشية الإمام السندي، مكة المكرمة، مكتبة عباس أحمد الباز.

٣. الترمذي، محمد بن عيسى: سنن الترمذي. [تحقيق] إبراهيم عطوه عوض، القاهرة: دار الحديث.

٤. الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن: عجائب الآثار في التراجم والأخبار "أو: تاريخ الجبرتي"، القاهرة: المطبعة العامرة الشرفية، ١٣٢٢هـ.

٥. ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين: صفة الصفوة. [تحقيق] محمود فاخوري، ومحمد رواس قلعجي. ط٢، بيروت: دار المعرفة، ١٩٧٩م.

٦. الحاكم، أبو عبد الله محمد النيسابوري: المستدرك على الصحيحين وبذيله تلخيص المستدرك للذهبي الرياض: مكتبة المعارف.

٧. ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان البستي: الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، [تقديم وضبط]كمال يوسف الحوت، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م.

٨. الحبشي، عيدروس بن عمر بن عيدروس: عقد اليواقيت الجوهرية وسمط العين الذهبية بذكر طريق السادات العلوية. القاهرة: المطبعة العامرة الشرفية، ١٣١٧هـ.

٩. ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي: فتح الباري بشرح صحيح البخاري. بيروت: دار صادر.

١٠. ابن حنبل، الإمام أحمد بن حنبل: كتاب الزهد. [تحقيق] محمد السعيد بسيوني زغلول. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٤هـ.

١١. ابن خلكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر، أبو العباس: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. [تحقيق] إحسان عباس. بيروت: دار الثقافة، (د.ت).

١٢. الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان: سير أعلام النبلاء. [تحقيق] شعيب الأرناؤوط (وآخرين)، ط٣،بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م.

١٣. الزبيدي، أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي: طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص. القاهرة: المطبعة الميمنية، (د.ت).

١٤. الزركليّ، خير الدين: الأعلام "قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين". ط٦. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٨٤م.

١٥. السخاوي، محمد بن عبد الرحمن: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بـيروت: دار مكتبة الحياة، (د.ت).

١٦. السخاوي، محمد بن عبد الرحمن: المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة. [تحقيق] محمد عثمان الخشت، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٥م.

١٧. الشاطري، محمد بن أحمد: أدوار التاريخ الحضرمي، المدينة المنورة: دار المهاجر، ١٣٩٢هـ.

١٨. الشعراني، عبد الوهاب بن علي، أبو المواهب: الطبقات الكبرى المسماة بـ "لواقح الأنوار في طبقات الأخيار"، وبهامشه: "الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية"، القاهرة: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٤م.

١٩. الشلي، محمد بن أبي بكر باعلوي: المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي. القاهرة: المطبعة العامرة الشرفية، ١٣١٩هـ.

٢٠. الصفدي، خليل بن أيبك بن عبد اللَّـه: الوافي بالوفيات؛ [تحقيق] هلموت ريتر...(وآخرين) ط٢، فيسبادن: فرانز شتاينر، ١٩٨٣م ـ ٢٠٠٥.

٢١. الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد: معجم الطبراني الكبير، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٢٢. ابن عربي، محيي الدين محمد بن علي: الفتوحات المكية. بيروت: دار صادر، (د.ت).
٢٣. ابن عطاء الله السكندري، تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم: لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه الشاذلي أبي الحسن. [تحقيق] عبد الحليم محمود، القاهرة: مطبعة الإحسان، (د.ت).
٢٤. ابن عطاء الله السكندري، تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم: مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح في ذكر الله الكريم الفتاح. [خرج أحاديثه] محمد عبد السلام إبراهيم. بيروت: دار الكتب العلمية، (د.ت).
٢٥. ابن العماد، عبد الحي بن أحمد، أبو الفلاح: شذرات الذهب في أخبار من ذهب [تحقيق] علي محمود الأرناؤوط، دمشق: دار ابن كثير، ١٩٨٦-١٩٩٥م.
٢٦. العيدروس، عبد الرحمن بن مصطفى: ديوان "تنميق الأسفار فيما جرى له مع إخوان الأدب في بعض الأسفار" وبذيله ديوان "تنميق السفر فيما جرى عليه وله بمصر"، القاهرة: المطبعة الخيرية، ١٣٠٤هـ
٢٧. العيدروس، عبد القادر بن شيخ بن عبد الله: النور السافر عن أخبار القرن العاشر. [تحقيق] أحمد حالو (وآخرين)، بيروت: دار صادر، ٢٠٠١م.
٢٨. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين. بيروت: دار المعرفة، (د.ت).
٢٩. القاري، علي الهروي المكي: المصنوع في معرفة الحديث الموضوع. [تحقيق] عبد الفتاح أبو غدة. حلب: المطبوعات الإسلامية، ١٩٩٤م.
٣٠. الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير: فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات. [تحقيق] إحسان عباس، بيروت: دار الغرب الإسلامي، (د.ت).

٣١. ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي: البداية والنهاية، ط٢، بيروت: دار الفكر، ١٩٧٨م.

٣٢. كحالة، عمر رضا: معجم المؤلفين "تراجم مصنفي الكتب العربية"، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د.ت).

٣٣. المباركفوري، محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي. مكة المكرمة: دار الباز.

٣٤. المرادي، محمد خليل بن علي: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر. ط٣. بيروت: دار البشائر، دار ابن حزم، ١٩٨٨م.

٣٥. مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج القشيري: صحيح مسلم. [تحقيق] محمد فؤاد عبد الباقي. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٥م.

٣٦. المناوي، زين الدين محمد بن عبد الرؤوف: الطبقات الكبرى (أو: الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية). [تحقيق] محمد أديب الجادر، بيروت: دار صادر، ١٩٩٩م.

٣٧. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، بيروت: دار صادر، (د.ت).

٣٨. الهيثمي، علي بن أبي بكر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. بيروت: مؤسسة المعارف، ١٩٨٦م.

٣٩. أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى: مسند أبي يعلى. [تحقيق] مصطفى عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م.



المركز الملكي للبحوث والدراسات الإسلامية

السلسلة العربية – الكتاب العاشر